لعلّ

ل بيسان الشملتي

أروقة
الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

لعلّ 13

ل بيسان الشملتي

أروقة
الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

إنْ شعرتَ بأنَّ أحداثَ روايتي ناقصة، أو ربَّما لم تكتمل بالنسبةِ لك، ضع ما يُناسبكَ من التفاصيلِ والأحداثِ المرضيةِ لقلبك ولو لمرةٍ واحدةٍ في أيامِ العُمر، بعيدًا عن الواقع وما أحدثهُ في أرواحنا من شروخٍ لا يمكنُ أنْ تُشفى، فأنا حين كتبتُ حروفي هذهِ كنتُ أريدُ شرحَ الحبِّ كما يُريدُ قلبي، ليسَ كما تفرضهُ عقيدةُ عاداتِنا المُهترئة، وأردتُ أنْ أُوصِلَ رسالةً قصيرة، هي أنَّ الحبَّ لا يُكتبُ لهُ نهاية إنْ كانَ صادقًا، فلا الظروفُ ولا العاداتُ تستطيعُ إطفاء نيرانِ العشقِ حينَ تشتعِلُ في قلبينِ عَشِقا بعضهما بصدق ...

هذهِ روايتي بين يديك، اقرأها بتأمُّل؛ فأنا بُحتُ لكَ بمشاعري، وكلُّ ما يجولُ في داخلي من حبٍّ وحرب، خوف وتردد، حزن وفرح، لهفة وانطفاء، وانتظارٌ أيضًا ...

كلُّ ما أريدهُ منك هو أن تشعرَ بي ...

دار أروقة الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
fikrdar@gmail.com
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
هاتف: 0788413775 - 0785360684
أروقة
الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

لَعَلَّ

لَعلَّ

لـ

بيسان الشملتي

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
2021/2/1329

819.9

الشملتي، بيسان تيسير

لعل/ بيسان تيسير الشملتي.- عمان: المؤلف2021

دار أروقة الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
fikrdar3@gmail.com
الأردن - عمُ ان - وسط البلد - شارع الملك حسين

المواصفات:/النصوص الأدبية//النثر العربى//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولايعبّر هذا المصنف عن رأي دار المكتبة أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة العربية الأولى

2021

الإهداء ..

إلى كل من أوقفت الحرب أحلامه، وأنهَت حياتهُ ببدايتها، إلى الخِذلانِ و الآلام، الانتظار، الحياة والموت، الحُبُّ واللهفة، لدقاتِ قلوبِنا المخفية، إلى من أرهَقَتهم الظُّروف، وفقدوا شَغفهم في أولِ المَطاف، لكل من بدأ في طريق العشق وبقي خائفًا من النهاية وأضاعَ على نفسه العيش في تفاصيلٍ كثيرة تستحق منه التضحية.

أنتَ لها، ستنجو، وسَتطيبُ لكَ الحياة، أؤكدُ لكَ ذلك، فقط ابقَ قويًا دائمًا، واعلم أنَّ الحُبَّ يريدُ صدقًا وتمسُّكاً وصبرًا كثيرًا، ولو أحاطت بكَ أشواك الصبّار، عانقها وأكمل ما بدأتَ به ..

لعلَّ

شكر..

إلى الرقمِ واحِد في حياتي ..

إلى أبواي وقلبيهما الطاهرين ..

إلى كلِّ من آمنَ بأنه سَيمسكُ كتابي يوماً ما، كالآن تماماً..

إلى من جعَلا حروفي أجملَ وأبلغ، ومنحاني الكثيرَ من وقتهما، لتظهرَ حروفي في أجملِ صورة .

الأستاذ: رياض الشملتي

الأستاذ: إبراهيم البيتاوي

إلى من كانَ لهُ بصمة في غلافِ مولودي الأول " روايتي " ..

مصمم الغلاف: أمجد الشواهنة

لعلَّ

لعّلَّ الحروف تصلُ يومًا ..

لعلَّها تُقرأ..

لعلَّه يأتيني يومًا من أتمنى، لعلَّهُ يشعر..

ولعَلَّني أحظى به بعد طول انتظار..

لعلَّ العشق يسَّطرُ في صفحاتٍ تملؤها المواقف بعيدًا عمّا تنطقهُ الألسُن...

لعلَّها تنطوي الأرض؛ لتجمعني بأحلامي الصغيرة..

ولعلَّني أصبحُ المرأة التي رسمتُ ملامحها في خيالي منذُ زمنٍ بعيد..

لعلَّ الحربَ تحزمُ حقائبها ذاتَ يومٍ وتذهبُ دونَ رجعة ..

لعلَّ البدايات لا تنتهي ..

ولعلَّ النهايات تكون مُرضية دائمًا ..

بدأتُ بـ لعلَّ وسأنتهي بها، وما بين البداية والنهاية لن تنتهي الأمنيات داخلي ...

لعلَّ

سأخبركَ عنكَ قبلَ البدءِ بمُحادَثتِك...

من أنت.. ؟

أأنتَ الذي نُفيَ خارج حدائق الأمل ؟!

أأنتَ الكلمات التي تُقالُ في الزُّقاقِ بينَ عاشقينِ ذاقا السَّقمِ ليَلتقيا بعد غيابٍ ليروي كلٌّ منهما للآخر، ماذا فعلَ الغيابُ بقلبه ؟!

أأنتَ أنشودة المطر التي ترويها فيروز كل صباح في مقاهي المدينةِ على مسمع كوكب بأكمله ؟!

أأنتَ كتابٌ وضعَ في مكتبةٍ عتيقةٍ يسعى الجميعُ لاقتنائه ؟!

أأنتَ رجلُ الليالي التي يكثرُ فيها صوتُ دويّ الانفجارات ؟

أأنتَ قبانيٌّ آخر ؟! أم أنكَ مختلف تمامًا بوصفِكَ لتفاصيلِ الحب، الخيانة، الشوق، الألم، والحرب ؟!

أأنتَ المتوشحُ بالليل الذي يُشاركَ ندمك وشعورك بالذنب حيالَ ذلك الجسد الذي تركتهُ طريحَ الفراش يصارعُ المرض، وأنتَ في أحضانِ امرأةٍ أُخرىٰ ؟!

أأنتَ الذي تغرسُ القلمَ في تلك الأوراق لتوثق هزائمك بوجود فنجان قهوة مرّة بمرارةِ أيامك بعد فراقِها .. ؟!

أأنتَ العاشق، المتيم، والخائن في نفس الوقت ؟!

أأنتَ سيد اللون الأسودِ، الأوقات الحزينة، والكوابيس المُخيفة ؟!

أأنتَ الرجلُ الوحيد الذي يقدّسُ عزلتهُ أكثر من أيِّ شيء ؟ عزلته التي يستحضرُ فيها طيفها وملامحها وصوتها...

أأنتَ سيدُ القلم ؟! ووليد اللحظات ؟! وصانع الخيال ؟!

أأنتَ الذي ترتحلُ من زمنٍ لآخر عبر ورقة تخطُّ عليها بعضًا من أحداث مؤلمة وأُخرى سعيدة ؟!

رجل الحُب والتفاصيل المخلّدة في الذاكرة، رجلُ المرأة الواحدة بالرغم من خيانتك لها ....

فالعينُ عينٌ لا ترى سواها، فبقيَ قلمك يخطُّ الكلمات لهَا حتى بعد موتها، والراء روحٌ تعيش بين طيّات الماضي، بين ملابسها ومشطها الذي يرتبُ خصلات شعرها كما ترتبُ الريّاح الموج

العنيف، واللون الورديّ المنثور على شفاهها، وفراشها المليء برائحة العطر والألم، بعيدًا عن الجسد الذي يعيش الحاضر المثير للاشمئزاز، والواو ورودٌ تُنثَر كل صباح على ذكريات لم تمت في الذاكرة وباقية حتى خروج الرّوح، والتاء تعبٌ وألم، وندم أكبر من أي شيءٍ في هذه الدنيا....

أتمنى أن يكون رَجُلي في كوكبنا مثلك، أن أكون هنائه، أن يُرتِّل على مسامعي كل كلمات الحب المستثناة لي، التي أعرفها وما لا أعرف، أن يكون كاتبي وأكون أميرة أحلامه وسيدة قلمه وكلماته .

فأنا امرأة تُروقني فكرة أنَّ أحدهم يكتبُ لي، يرى نفسه في عَيني، ويرى الحياة من خلالي، وإن ابتعدتُ لحظة عنه ألقاه يُناجي طيفي، وإن أرادَ إرضائي كتبَ لي بضع كلمات تصف عشقه لي، تروقني فكرة أنني معجزة لا يمكنُ أن تتكرر لأحدهم، وأن أكون كل ما يملك، وأكون جيشه الوحيد ...

أنا وليدة الصباح على صوت فيروز، أنا وليدة الحب الأزلي، وطفلة أمي المدللة، وأنثى التفاصيل، أنا التي أنتقلُ من زمن لآخر

عبر الروايات، وتجد نفسها بعد بحث عميق بين الكتب، أنا عاشقة القيصر وأم كلثوم، أنا نزارية الهوى..

وأنتَ مُقَدِّسٌ للمرأة، وهذا ما يلفتُ انتباهي ..

أعلم أنكَ شخصية خيالية لا علاقة لها بالواقع، لكنك تمتلك صفات رجلي، فكم أتمنى أن يأخذ أحزاني على محملِ الجد، وأن يحفظ تواريخ لقاءاتنا، وتبقىٰ تفاصيلي عالقة في ذهنه، وإذا جلست على مقعد في حديقة عتيقة ومرَّت السنوات، يعود بعد ذلك ليرى طيفي، ويجلس بجانبهِ يُحاكيه ويُقبّله ...

أن يحزنَ لفراقي، ويفرح بـ قُربي، ويفعل كل ما بوسعهِ لتجمعنا الصُدف، ولو كلَّفهُ الأمر حياته لصنعِها...

أن يكون بطلي، رجلي، كاتبي، فارسُ الأحلامِ المنتظر، مُلهمي، أسطورتي، روايتي، أفكاري، قلمي وأوراقي ...

من أنا ؟! ومن أنت ؟!

ومن نحنُ من كل هذا الألم الذي تحمله الأيامُ بين طيّاتها؟

كان شتاءً كئيبًا يا عروة حينَ وضعتْ الحربُ ستائرها، وبدأت المجزرة، خسارة للرّوحِ والجسد في آنٍ واحد، لم أكن أتخيل أن مقاومة الظلام والخروج إلى النور طوال السنوات الماضية سينتهي بفقد موجع كهذا الفقد الذي حدث لكثير من القلوب، ففي ليلة ممطرة بدأت الدموع بالهطول من سماء الأعين، والصراخ يتركُ خلفه صدىً قويًا كالعويل الذي يرتدُّ صوته بطريقة مؤلمة بين جدران القلب، ظننتُ في ظلِّ هذه الأوجاع أن الحب سينتهي، حين شَعَرت القلوب بنبضاتها تتخبطُ بشكل يخنقها إلى حدِّ الألم، اختفى الصمود، وتناثرت الحروف، واحتلَّ السوادُ المدن....

جريمة اقتُرِفَتْ بحقِّ الأنفسِ حين امتلكها الخوف، وتهاونتْ في جرحها، واستهانت بمكانتها، حينَ خَسِرت القلوب الرِّهان الذي لطالما وقفت في وجهِ العالمِ أجمع مقابل أن تكسبَ حميمها بعد حرب ترغبُ بنهايتها أن يحيا الحب، وما عانتهُ كان أكبر من قدرة تحملها وصبرها، وزادتها المجزرةُ انهزامًا، تشتتًا، وضياعًا، ولا قدرة لها على مواجهة ما آلَ إليه مصيرها، من نفسيات محطمة وذوات هشّة وكلمات عالقة في الحناجر...

ورُفعَ سقفُ التوقعات بطريقة لا يمكن تخيلها بأنَّ كل شيءٍ سيكون على ما يُرام، لكن خابت الظنون، وتألمت القلوب في نهايةِ الأمر وتغير كل شيء في لحظة، جاء الفراق فجأة دون أيّ أسبابٍ أو مقدمات، أو رُبَّما كان هناكَ أسباب غير مُعلن عنها، ولا يمكن استيعابها إلّا بعد الفراق، كنتُ دائمًا أقول أنه لا يمكن تصديق أيّ أسباب أو تُرَّهات وعوائق تُوضَع لإنهاءِ علاقةٍ ما؛ لأننا نحن دائمًا من نضع هذه الحُجج لغاياتٍ في أنفسنا، وأن كل ما يُقال ما هو إلّا تخوّفاتٌ وخيالاتٌ نحن من يقوم باختراعها، ونقنعُ أنفسنا بها ونتعايش معها أيضًا، وفي نهاية المطاف نفقدُ ذواتنا.

إلى أن وصلت القلوب لمرحلةِ " أنَّ كل قلب بجانبِ حميمه " بعد مجاهدة طويلة، لكنها وصلت هشّة من الداخل، هشّة للحد الذي رأت نفسها كالدمى التي يتلاعبُ بها الأشخاص بمساعدة الحرب، وبالرغم من ذلك اختارت القلوب طريق الحبّ المليءِ بالدماءِ والصُعوبات،وهي على يقينٍ أنها ستكون من المنتصرين في نهايته، وأنَّ الانتصار مرهونٌ بصعوبةِ الطريق وكثرةِ العقباتِ فيه، كان الظنُّ يتمثلُ بأنَّهُ كلما كانَ الحبُّ مؤلمًا، كُلَّما استمر..

فمنَ الحبِّ حبًا لا يعرف الليّن والرحمة، ومنهُ ما يسكنُ الرُّوح ليومِ يبعثون، ومنه ما يترك الجروح على جدران القلب وإن شُفِيت تتركُ مكانها علامات لا تُمحى، وبعد كلِّ خُطوة في الحب نغرق أكثر، ولا يمكننا العودة من حيثُ أتينا، وإن عُدنا لا نعودُ كما كُنّا، ولا نستطيعُ الوقوف لحظات بسيطة للتفكير في مصيرنا، يبدو الأمر لي كمسرح كبير، يوجدُ فيهِ عازف بيانو، والمقاعدُ ممتلئة، يُرفَعُ الستار ويدخلُ العازف، يبدأ بنثرِ المشاعر بين الحضور، يُصفّقونَ له بعد كل معزوفةٍ يعزفها فتلمسُ أرواحهم، يبدو كمن يُلقي المعزوفات بينهم كالورود، وكلَّما نجح بإيقاظِ مشاعرهم زادَ تصفيقهم له، هو لا يكترثُ لما يحدثُ في جوفهم، ولا يعلمُ أنَّ الحياة تبدأ في قلوبهم حين يبدأ بالعزف.

لا يعلم أنَّه في كلِّ مرة تبدأ أصابعه بالعزف على البيانو، هناك الكثير من الأيدي تتشابك، والكثير من الدموعِ تسيل، والكثير من القلوب تلتفت للذي تحب، وعيونٌ تلتقي وتتحدث، وابتسامات تنطلق في ممرِّ الذكريات؛ لتسترجعَ أيامًا سعيدة

أصبحت نسيًا منسيًا، وحروف تُهمَس بين الأفواه، كلُّ ذلكَ وهو لا يكترثُ إلّا بحركةِ أصابعه...

وكلُّنا من ضمنِ الحضور يا عروة..

تبدأ حياتنا حين يبدأ بالعزف وتنتهي حياتنا بانتهائه، يُشعِلُ في القلوب فتيل الحب دون أن ينطق حرفًا واحدًا، أيقظ بداخلنا عشقًا لم نشعر بهِ من قبل، كانت تنتهي الليالي في ذاك الشتاء بالرجاء الذي لا يعقبهُ تلبية الطلب، كمن يطلبُ المستحيل الذي لن يتحقق، وفي كلِّ مرة نرجو الانتباه لتفاصيلنا، أو حتى أن يتمَّ الالتفات لنا في زُحامِ اليوم...

انتهت البداية سريعًا حين بدأت الحرب، وابتدأت بداية من نوع آخر وهي المحاربة من أجلِ الحفاظ على هذا الحب ...

بدأت الكلمات تتراكم في الأعماق بطريقة موجعة، ومع ذلك كان الحب هو الاختيار الثابت والأخير، وأن القلوب ستكونُ سعيدة بقدرِ حزنها، في ظلِّ الدمار الذي تُحدِثهُ الحرب وتبعاتها، كانت الفكرة التي تتراودُ في الأذهان هي أنَّ "النجاة حاصلة لا محالة "

وستُغلَقُ تلك الفجوة التي شَرخَت القلوب، وستنقضي الحرب، كانت المحاولة سيدة الموقف، واحتملت القلوب ما لا يُحتمل، وبقيت على العهد، بقيتْ لآخر رَمَق....

قاسية هي تلك اللحظات المملوءة بالخوف، والخشية من البوحِ بما يدور في الأعماق من مواقف حدثت ولم تندثر، عن الموت المحيط، الخوف من الفقد، التراخي، التقاعس، التهاون، والبرود من قبلِ أشخاص ظنّوا أنهم يحافظون على دمشق وأزهارها، والأصعب هي المسافة التي صَنَعتها المجزرة بين العاشقين، فأصبحت الحدود تحولُ بينهم، بعد أنْ كانت تختفي ببضع خطوات للوصول، الآن يحتاجون للقفز أميالًا وأميالًا للوصول، وهذا في حالِ وصول كل قلب لحميمه ..!!

فُقِدَ الشغف نحو كل شيء حتى تلك الأشياء التي كانت مرغوبة بشدّة في الماضي، وهذهِ هي المأساة المشتركة يا عروة، مأساة الحرب وما تركتها في دواخلكم، ومأساة سنواتي العشرينية.

والمرعب، أن تصبح الحياة معرضة للانتهاء في أيّ وقت وبلمحِ البصر؛ بسبب قنبلة أو رصاصة، ولا يُكتَرثُ للأرواح، يُرمى بها

على جوانبِ الطرقات، ولا يُطلبُ من الأحياءِ إلّا الاحتمال، وبفاهٍ مغلق.....

كان شتاءً صعبًا، موجعًا، تملؤهُ الرغبة بالبكاء، فالغرفُ ملأها السواد، وما بين بكاء، ضياعٍ، اشتياق، تشتت، وخوف، تتمايل القلوب ...

من أنا يا عروة ؟!

أنا عشرينية وُلِدت من رحمِ الكتابة، أُمًا لأربعةٍ وعشرينَ حرفًا، كائن بنفسجي يقدّسُ الحب، أنا التي خُلِقت في هذهِ الحياة وحلَّقتُ مرة واحدة ومن ثمَّ هَوِيتُ سقوطًا حتى ارتطمتُ بالقاع أكثر من مليارِ مرةٍ طيلة سنواتي العشرينية التي مررتُ بها.

قُصَّت أجنحتي من الحزنِ والألم، وكانت أُمي تحيكُ لي ثوبًا من الفرح بعد كلِّ أزمة خذلان تمرُّ على قلبي..

يحتوي اسمي على خمسة حروف، فالحرفُ الأول هو بُندقية أصابت قلبي حين أُلقيَ بهِ في مخيمٍ لـ اللاجئين بعيدًا عن وطني، كما حدث معكم بالضبط، والحرف الثاني يمامة الحُب تأخذُ روحي كل

ليلة؛ لتطير بها في سماءِ فلسطين مع حمامِ القدس لتشعر بالعشق الأبدي، كما تطير أرواحكم لسماء دمشق كل يوم، والحرفُ الثالث سطرُ عشقٍ في كتابٍ عتيق لا زال بريق رونقهِ ساطعًا يروي قصة عشقك لهناء في زمنٍ كَثُرَت فيه سطورُ العشقِ المزيفة، والحرفُ الرابع اطمئنان يحيط بي عندَ سماع صوت الأذان مع الفجر، والحرفُ الخامس نسيج من الخيوط البنفسجية في وشاح نسجتهُ لي أُمي؛ لتحميني من غُبارِ الحب المزيف الملعون ...

عروة، ظننتُ أنني لن أحتاج أنْ أخبر أحدًا أمورًا تتعلقُ بي، وسأكتفي بما أقولهُ لنفسي، لكنني وجدتُ نفسي معبئةً بكلماتٍ أردتُ البوحَ لك عنها.

عروة :

أنتَ شخصية تُدهشني من معشر الرجال، رغمَ عيوبك وتصرفاتكَ الغير لائقة في خيانة امرأة قلبك، ولن أَكُفَّ عن قول هذا ..

اليوم أودُّ إخبارك أنّي ما زلتُ أنتظرُ ظهور عروة آخر في حياتي...

كم أتمنى أنْ يكون مثلكَ تمامًا، يتلاعبُ بالكلمات، يُجمّلها، أبًا لأربعةٍ وعشرين حرفًا، يُقدّسني، يعشقني، يُمجدني، يتغنىٰ بي، يُرتلني على مسامعِ العُشاق، يَشعرُ بي، يَقرأني، يَفهمني، يَكتبني كأسطورةٍ باستِت، يحملُ بينَ طيّاتِ اسمهِ شغف، جوىٰ وتعبُّد..

و أتمنى أنْ لا يكون مصيري كمصيرِ هناء بفعلتكَ الشنيعة.

وسأُخبركَ فيما بعد ببعضِ التفاصيل .....

لنبدأ ....

(1)

عروة دعني أحدّثكَ الآن عن بُرجي، " السَّرطان " ..

أظن أننا مواليد شهر تموز، الألطف على الإطلاق، وأننا لا نتجاوز المواقف السيئة ولا نستطيع أنْ نتعافى من ندباتها بتاتًا ولو بعدَ حين، وأنا كذلك يا عروة، فالمواقف التي حدثت جعلت منّي جسدًا هشًا لا يحتملُ الصدمات والخيبات .

لطالما شعرتُ بأنَّ ثمة أمرًا جللًا سيضعُ فتقًا بيني وبين راحتي، شعرتُ دائمًا بأنني متورطة بأحزاني ولا قدرة لي على الخلاص منها، عاصفة من الأوجاع تُهاجمني في خُلوتي كل ليلة، يأتي الليل مكتظًا بالذكريات التي أُجاهد لنسيانها.

رُبَّما لم أكن قوية كما يجب؛ فمزاجيتي المفرطة وكل شيء سيء اجتمع في هيئتي، وعجز الجميع عن إنارتي يا عروة، لكنني بقيتُ أُجاهدُ لإنارة نفسي لحينِ مجيء ذاك الذي يجعلني أشِعُّ نورًا وأنا بجانبه، كل ما أُريده الآن أن أشعر ولو لمرة واحدة بذلك الشعور، ويبقى ملازمًا لي .

أفكار مبهمة تجتاح رأسي بجنون صارخ، أحاول الجلوس مع نفسي وإقناعها بحال جديد نعيشه، لكن بعد دقيقة بالضبط أعود لسابقِ عهدي.

أعلمتَ الآن ما ميزات بُرجي ؟

(2)

عروة .. أتعلم ما المشكلة ؟!

أنا المشكلة وكلُّ المشكلة أنا ..

أضعتُ نفسي وسنوات عمري في طريقٍ مليءٍ بالخيبات ...

أبحثُ عني ولا أجدُني، أناديني ولا أُجيب .

كم وددتُ إيجادي، لأختلي بي، فأصفعُني، فأُبكِيني، فأحتَضِنُنِي، ثم أُعاتبني على كل شيء مضيتُ فيه بالرغم من معرفتي بأنه موجع، وأَلومُني على إعطائهم أكثر مما يستحقون، وبقائي المضمون بالنسبة لهم عند ذهابهم ورجوعهم كيفما يريدون، ألومني على استهانتي بمكانتي، وإذلالي لعزتي، وتفضيلي لهم على نفسي.

وأُمسِكُ بي وأهزني بكلتا يداي لأصحو، ومن شدة الألم ينفجَرُ في عينيَّ نبعا مياه مالحة يحرقان ملامحي، فأقترِبُ منّي وأحتَضِنُني مجددًا وأُواسِيني، وأمسَحُ دموع عينيّ بيديّ، وأتكورُ بين ذراعي، لم يعد في الرّوح متسع لخيبات جديدة ؛ فكم مرة كنت أجلس بجانبي، وأقهقهُ من شدةِ سخريتي من نفسي على ما آلَ إليه أمري

بسببي، وأنظرُ لنفسي نظرة الضعيفة الغبية التي تستحقُ كل ما حدثَ لها، فألعنُني وأشتُمني وأركُلني، ولولا ضعفي وجُبني لقتلتُ نفسي، فأنا من أوصلني إلى هنا، سذاجتي وهشاشتي وإفراطي بالتجاوز جعلهم يعاقِبُونَنِي على أخطائهم بحقّي، وأداروا ظهورهم لي عند احتياجي لهم، ثمّ وقفوا فجأةً ليكن لهم نصيب في أذيتي ويمضون، ليتَني أستطيعُ إخبارهم بأنّني سأشعُر بتحسن إنْ تركوني وشأني، نعتوني بالمجنونة وهم لا يعرفون أنني إنسانة طبيعية دونَ خبث وتَغبُّن، وهذا الذي جعلني كومة أحزان يعتليها الهوان ....

أحاولُ المشي، فأتعثر . وأبقى أبحثُ عني ولا أجدني ..

وقبل أنْ أُكملَ لكَ ما بدأت، أتعلم أنَّ أجمل قصص الحب هي التي تكون في زمنِ الحرب والخوف ؟، حينَ يتجرَّدُ الإنسان من كلِّ شيء، من عادات ومن تقاليد وظروف، ويكونُ حلمُ النجاة لهُ ولمن يُحب هو الهدف المنشود..

أريدُ إخبارك عن قلبينِ جمعهما الحُب في زمنِ الحرب، في زمنِ الأحزانِ والقذائفِ والأجسادِ المتهالكة..

كلٌّ منهما كان يحتضنُ أرضَ الشامِ بطريقته، واحدٌ يُضمّدُ الجراح والآخر يوثقُ الأحداث ..

بدأت قصتهما بعد عامٍ من ابتداء الحرب في تاريخ 2012/3/15 حين سقطت قذيفة على منزل يحتوي الكثير من أحلامِ الطفولة التي تحولت لرُكام...

كانت شام ممرضة تبلغُ من العمر خمسةٌ وعشرونَ عامًا، تعيشُ مع والدتها وأخيها الصغير" علي " الذي يبلغُ من العمرِ 10 سنوات، يعيشون في بيتٍ صغيرٍ بعد فقدانِ أبيها، درست التمريض بِشغف، بالرغمِ من خوفِ والدتها عليها، لكنها كانت تمتلكُ أسلوب إقناعٍ جعلَ والدتها تقبلُ بمجالِ دراستها، مرَّت عليها سنوات الدراسة بصعوبة نوعًا ما من الناحية المادية، فلم يكن لهم معيل سوى والدتها، فكانت تعمل في إحدى المدارس؛ لتؤمن لها مصاريف جامعتها، وبعدَ أنْ تخرَّجت شام من الجامعة، سعى لها أحدُ العاملينَ في المدرسةِ التي كانت تعمل فيها والدتها بوظيفة في مشفى قريب من بيتها، وبدأت عملها، لكنها أجبرت والدتها على الجلوسِ

في المنزلِ بعدَ تعبٍ دام لسنوات؛ لتؤمن حياةً كريمةً لها ولأخيها علي..

عروة! كم تتعبُ أمهاتنا من أجلنا، فيقدمنَّ لنا أكثر من قُدرتهنَّ على العطاء، أذكر والدتكَ كم كانت تخافُ عليكَ حينَ تعود متأخراً للبيت، ولا تنامُ إلّا إذا اطمأنَّت عليكَ أنكَ تنامُ في فراشك ..

لله درُّ أمهاتنا يا عروة...

بدأت شام عملها في المشفى بروح عالية، واستطاعت أنْ تكسب قلوب جميع زميلاتها، كانَ الجميع يحبُّ التعامل معها، وحينَ تدخل لغرفةِ مريضٍ لا تخرجُ منها إلّا وقد رَسَمت الابتسامة على وجهه، لكنّها في نفسِ الوقت كانت من الشخصياتِ الحريصة في التعامل؛ خوفًا من أنْ تندمَ يومًا على معرفتها لشخص و إدخاله لحياتها ..

بعدَ أن أتمَّت شام العامين في المشفى، أصبحت تخرجُ في كلِّ مرّةٍ مع طاقم الإسعاف إلى المناطقِ المنكوبة؛ لتداوي الجرحى، فخرجت ذات يوم مع الطاقم؛ ليتم نقل الجرحى إلى المشفى ودفن الموتى... وصلوا المكان، فأخذت شام عُدَّة التمريض وبَدَأت بالبحث عن

جراح تنزف تحتاجُ للمداواة، في ذاتِ الوقت كان وطن الصحفي موجود أيضًا في المكان، يبلغُ من العمر ثلاثونَ عامًا يعيشُ مع عائلته لكنَّهُ لا يراهم دائمًا كشام، فعمله يُجبرهُ على الغياب عن البيت؛ بسبب أنه يوثقُ أحداثَ الحرب لإحدى المحطّات، تتكونُ عائلتهُ من ثمانيةِ أفراد، والديهِ وإخوته، محمد الأخ الأكبر، إسلام وعمر ونور وزهرة، جميعهم متزوجون عَداه، وكانَ يصغرُ محمد بثلاثِ سنوات، علاقتهُ قوية بأهله، ما عدا أخيهِ محمد، فقد كانَ هناكَ نوع من الغيرة يسكنُ نفسهُ؛ بسبب أن وطن كان قريباً من جميعِ أفرادِ عائلته، والجميعُ يلجأ إليه في كلِّ الأمور، حتى والده إنْ كانَ محتارًا في أمرٍ ما، كانَ يطلبُ رأي وطن، وهذا ما جعلَ الثغرة تكبر بين وطن ومحمد، بالرغمِ من أنَّ محمد كانَ ناجحاً في حياتهِ أيضًا، فقد كانَ ضابطًا في الدولة...

درسَ وطن الصحافة والإعلام في جامعةِ دمشق، كان يعمل ويدرس في نفسِ الوقت، فقد كانَ والده دائمًا يحثُّهُ هو وإخوته على الكفاحِ في حياتهم من بابِ الاعتمادِ على النفس، وأنه لا يعلم متى يحينُ أجله، فأرادَ أن يكون أولادهُ ناجحونَ دائمًا .

بدأ كل منهما بمُباشرةِ عمله، إلى أن وقفا في نفسِ المكان عند جثةِ طفلٍ ميت، حاولت شام أنْ تُسعِفهُ لكن لم يُجدِ أي شيءٍ نَفعًا، فقد فارقَ الحياة، بدأ وطن بالتقاطِ الصور هنا وهناك لتوثيقِ الأحداث، فأزعجَ شام بتصويرهِ المتكرر.

فوقفت قائلةً : ألا يكفينا وقوفُ العالم بأكملهِ ضدَّ هذه الطفولة، ألا يكفينا من القهرِ ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعت، أرجوك حافظ على خصوصيةِ جسدِ هذا الصغير ..

فبادلها الحديث قائلًا: أنا أقوم بالتصوير؛ ليعرف العالم أجمع ماذا يحدثُ في أراضينا، وليس لفرحي بما يحدث، أنا وأنتِ والكثيرُ ممن يعملون في هذا البلد يحتضنُ وطنه بطريقته، أرجوكِ اجعليني أُبيّنُ الحقائق ولا تقفي في طريقي، فما كان من شام إلّا أن قامت بمناداةِ طاقمِ الإسعاف لأخذِ جثة الطفل ودفنها، والدموعُ تهطلُ من سماء عينيها، فحين نظر إليها وطن سأل نفسه: كيف يمكن لعينيها البنية كلونِ الغروب أنْ تبكي ؟!

مضت شام مغادرةً المكان إلى المشفى تاركة المكان لوطن؛ ليكمل عمله...

أتعلم يا عروة، الحربُ مؤلمة، وليس لألمها حد..

كم تُهلِك الأجساد والقلوب وتُزهِقُ الأرواح، تُنهي الأحلام قبل أن تبدأ، وتزيدُ من نزف الدموع والدماء، وتُطالبُ الشعب أنْ يصمت أمام سجّانه، ولا تسمحُ له بالصراخ من الألمِ حتى؛ فهي تُشعِرُ من هم تحت رحمةِ من لا يرحم أنَّ صوت أنينهم آثِم، وتجبرهم على تقديم الامتنان للشتائم و اللعنات، والابتسام للصفعات والإذلال وتقبيل الأرجل، لكن لا يُسمحُ لهم بالصراخِ مهما بلغَ الأمر من الألمِ والقهر ما بلغ، لكن في نفسِ الوقت يُسمحُ لهم بجمعِ دمائهم في كؤوسٍ تبدو وكأنها كؤوسُ نبيذٍ يرتوي بها مسيلو دمائهم، وأنْ يرسمون لوحات جميلة تُبيّنُ للعالم أنهم في أحسنِ حال، لوحاتٌ تسرُّ الناظرين، وأنْ يقفوا بالدورِ لمصافحةِ قدرهم الذي لا مهرب منه، ولا يسمحُ لهم أيضًا بالتذمر، ويجبُ عليهم أن يشكروا القدرَ على هذا الأذى، ومن يكن له قدرة أكبر على الكبتِ والصمت يفوز بجوائز عدّة كزيادة مظاهر الإذلال عليهِ مثلًا، أو ربَّما يُستباح عرضه، وتُهدرُ دمائه بدمٍ بارد ....

عروة ..

لو أنك شهدتَ أيامنا هذه، إنها أشدُّ قسوةً مما كنا نظن ..

لم تتوقف حربكم، بل نامت لبعض الوقت؛ بسبب وباءٍ قد حلَّت لعنته على الجميع، حرب امتدت تسعَ سنواتٍ وقفت لبضعِ لحظاتٍ؛ بسببِ مخلوقٍ لا يُرى بالعينِ المجردة...

وطني يتألم كباقي الأوطان يا عروة، الهدوءُ عمَّ البلاد، صفّاراتُ إنذارٍ تُدَوّي في أنحائه، وجنودُ وطني يؤدّون صلاتهم جماعة في الطريق، رجال قُهِرت، ومساجد أُغلقَت، ورجلٌ يقرأ القرآن باكيًا مشتاقًا لصلاته في بيتِ الله، ورضيعٌ يبحثُ في الظلام عن الأمان في أحضانِ أمهِ المصابة بالمرض، وحفلُ زفاف لم يكتمل، وسياراتُ إسعافٍ تزعقُ في الشوارع، والكثير الكثير من الآهات التي تسكن أرواحنا، وعجوزٌ تدعو لأبناءِ وطني بالسَّلامة ..

كلٌّ منّا يتخبطُ في فراشهِ من حمى التفكير مما يعانيهِ وطني ..

عروة ..

إنني أتألم لألمِ وطني بجانبِ معاناتي من الخذلان، إنني أُعاني من خثرةٍ في القلب، وتفكير لا قدرة لي على إيقافه؛ فهو يأكل جمجمتي، وأحلام توقف تحقيقها إلى إشعارٍ آخر...

عروة ..

إنني أشكو لكَ حُزني من بعد شكواي لله، وأعلمُ أنك لن تقرأ كلامي هذا، وأنَّ مصيره هو صندوق أسراري، لكنني وبالرغم من هذا أكتبُ لك بارتياح وطمأنينة، ويُصيبني الإصرار على الكتابة لك أكثر.

فأنتَ ملاذي الأخير....

لذلك سأكملُ لك قائمة خيباتي، سأكملُ لك عن كلِّ المواقف التي تركت فيَّ ندوبًا لن تُشفى ما حييت، فقد سئمتُ أقلامي وأوراقي.

أرجوكَ يا عروة لا تحدِّثني عن الصبر مثلهم، فهم لا يعلمون ما هيَ الأشياء التي أنتظرُها، وأنتَ لا تعرف عن اللحظات الطويلة وأنا أراقبُ عقارب السّاعة وهي تتحركُ ببطءٍ قاتل.

وبالرغم من حديثي لكَ عن كلِّ شيءٍ إلّا أنك لا تعرف إلّا القليل، لا تعرف عن الأمنِيات التي أنتظرُ تحقيقها، وكم من الابتلاءات صبرتُ عليها حتى إنني وصلتُ لمرحلة كنتُ فيها أنجو من يومي ولا أعيشه ..

أرجوك لا تسألني عن قوة تحمُلي فأنا تحملتُ ما لا يُحتمل، تجاوزتُ مواقف ربما لو مرَّت على غيري لأنهت حياته على الفور، تعايشتُ مع تفاصيل مؤذية تدفعني للانهِيار، وتماسكت...

تجاوزتُ الكثير من الخيبات، والوعود الكاذبة، والأحلام التي هُدِمت، وأذى أُهلِكَت روحي بسببه، وفقدٌ وخسارات لا تُعد ولا تُحصى، ونوباتُ قلقٍ لم تكن تهدأ إلّا بأدوية تدفعني للنوم والهروب من كلِّ شيء، لكن وبالرغم من هذا إلّا أنَّه لا مفرَّ من الكوابيس المرهقة التي تُطاردني، وحنينٌ لنفسي يُزهِق روحي، واشتياق لميّت لن يعود، والندم الذي ينهشُ جسدي، ونوبَات بكاءٍ مُبرِّحة، كل هذهِ المشاعر التي أحتفظُ بها خوفاً من أنْ أبدو أمام أحد في غايةِ الهشاشةِ والضعف ..

وأرجوك لا تُحدِّثني عن الحرب وتحدّي الذات ..

أنا دائماً في حروبٍ متتالية أهمّها حربي مع نفسِي التي تبحثُ عن أيّ فرصةٍ للهروب من هذا العالم ومن واقعيتِي في مواصلة الحياة بشكلٍ طبيعي، حربٌ ضدَّ مخاوفي من مستقبلٍ مُضَّطرب ومهزوز، وواقع في غايةِ القسوة ..

أنت لا تعرُف حقيقةَ الأمر، لا تعلم أنني أعيش فترة ما بعد الانكسار، ما بعد الهجر والخذلان، مدّة يملؤها الحزن الشديد والبؤس...

لا أستطيع أن أصف لكَ حجمَ التعاسة التي تغمُرُني ...

أتعلمُ يا عروة أنني تنازلتُ مُنذ زمنٍ عن رغبتي في شرح نفسي لمن حولي، وتبريرِ تصرفاتي للناس أجمعين، واكتشفتُ أنَّ بِوسِع كل شخص أنْ يفترض بي ما يريد، له الحريةُ في ذلك، أن ينظر لي بالطريقة التي تناسبُ ظنونه، مقابل أنْ أحتفظ بنفسي، وأنْ أكون متصالحة مع ذاتي، فمعرفتي لنفسي أهمُّ بكثير مما يظنون؛ لأنّني أعيش بعضًا من الوقتِ معهم وكلُّ الوقت معي....

كانت شام تُعاني مما أعانيه، لكن الفرقَ بيني وبينها هو أنني كاتبة ببداية طريقها تكتبُ عن أحزانها وعن بقايا الأشخاصِ داخلها لتَنفُثَ غُبارَ ما تَشعرُ بهِ من آلامٍ عن قلبها، وهي ممرضة تُضمِّدُ الجِراح وتبقى المواقفُ محفورة في ذهنها ...

دوامها في المشفى يمتدُ لسبعَ عشرة ساعة، وأحيانًا تبقى لأيام لا ترى أهلها، لكنها صامدة وصمودها يزدادُ بزيادةِ صعوبةِ ما تراه، وكنتُ أنا بالرغم من وجودي بينَ أفراد عائلتي إلّا أنني كنتُ منعزلة عنهم بعض الشيء.

كانت شام في كلِّ مرة تخرجُ لمنطقة منكوبة تحاولُ قدر المُستطاع أن تتمالك نفسها في ظلِّ ما يحدث، تحاولُ أنْ تكونَ كالرِّجال بالتماسكِ والصمود، ولكن الرجال قُهِروا يا عروة وبَكوا...

ماذا بقيَ لشام في هذه الحالة ؟؟

تبدأ شام يومها بصوت فيروز بالرغم من صوت القذائفِ المدوّي في الأنحاء، تحتسي قهوتها قبل البدءِ بالعمل، بعد ذلكَ تبدأ جولتها الصباحية على غُرفِ المرضى لتطمئنَّ على صحتهم، كانت كالملاك

تمشي في ممرّات المشفى، كالحمامةِ التي تُطلقُ جَناحيها للطبطبةِ على الجِراح، وكلَّما مرَت على غرفة ما كانت إلّا بمثابة علاج إضافي للأوجاع بابتسامتها البريئة، أمّا أنا فكنتُ نقيضتها تمامًا، أصحو على صوت أُمّي ولمساتها، مُحضّرةً لي مشروبي المُفضل، بالإضافة إلى ضحكاتها التي كانت بمثابةِ شروق للشَّمس من نوع آخر يشرقُ في بيتنا فقط ..

في يومٍ كانت الانفجارات متتالية بطريقةٍ فظيعة لا يمكن تصورها، كانت الأشلاء مترامية هنا وهناك، والجثث تدخل المشفى لتمكث في ثلاجة الموتى لحين دفنها، وبالرغم من اتساعها لتحتوي أعدادًا من الجثث إلّا أنَّ كثرةَ الشهداءِ في ذاكَ الحين طغى على كل شيء، ولم يكن هناكَ مُتسع لهم لدرجة أنَّ الأرض امتلأتْ بالأشلاء، لم يكن الأمرُ سهلًا قط، فصوتُ صراخِ الأطبّاء لم يهدأ، وجميعُ الممرضين مستعدين للأسوأ على الإطلاق ومن بينهم شام، في ذات اليوم كان وطن يقوم بالتصوير كعادتهِ في نفس المنطقةِ التي حدثت فيها الانفجارات بعد شهرٍ بالضبط من لقائهِ الأول بشام، لم يسعفهُ الوقتُ للهرب حين سقطت قذيفة على المنزل

الذي يجاوره تسببت بسيلانِ دمه، وإصابتهِ بجراحٍ بليغة، فنُقل إلى المشفى التابع لتلك المنطقة، أُدخِلَ وطن ودمائه قد شربت منها تُربة الشّام، حينَ وصل كانت شام من ضمنِ طاقم الإسعاف، فقامت هي وبعض الممرضين بإدخالهِ لإحدى غرف الطوارئ، وبعد مكوثهم لمدةِ ساعتين وأكثر في تقديمِ الإسعافات الأولية، نُقلَ وطن إلى غرفة العنايةِ المرّكزة، وكانت شام هي المسؤولة عن متابعةِ حالته في ذاك الوقت...

في نهايةِ اليوم أُعلنَ عن هُدنةٍ لمدةِ أربعٍ وعشرين ساعة، فأخذت شام استراحة كما الجميع، جلست بجانبِ النافذةِ في غرفة الممرضات، رنَّ هاتفها بعد بضعِ لحظات.

- شام: آلو

- والدة شام: بصوتٍ يملؤه الدموع، شام يا ابنتي أأنتِ بخير ؟!

- شام : نعم يا أمي أنا بخير لا تقلقي، كيفَ حالكِ أنتِ ؟!

-والدة شام: أنا بخير يا ابنتي، أرجوكِ انتبهي لنفسك..

- شام: حاضر يا أمي، أحبكِ

- والدة شام: وأنا أحبكِ يا ابنتي

- إلى اللقاء

- إلى اللقاء

أغلقت شام الهاتف، تحادثُ نفسها: ما الذي حدث؟ أيعقلُ أننا ما زلنا أحياءً نُرزق ... ؟

أيعقلُ أننا بعد كل ما حدث لا زلنا نتنفس؟، وأخذت تبكي بسبب واقعٍ أليمٍ لا يمكنُ تجنبه، ولا يمكنها النوم وترك كل شيءٍ يمضي...

أخذها النوم وهي تجلسُ مكانها دونَ أنْ تشعر ...

أتعلم يا عروة، كم نحنُ صبورات لدرجة لا يمكن أن يتصورها أي بشر، كم من المواقف نحتملها في ظلِّ أنها تبقى عالقة في أذهاننا؛ فنحن في أشدِّ الحاجة لأن يحتضننا أحدهم، أن يرى كل هذا الدمع المتراكم في قلوبنا، أن نرتمي غارقاتٍ في دموعنا على كتفِ أحدهم ليخبرنا أن كل ما نمر به سيمضي، أن يمسح على رؤوسنا قاصدًا أن يبُث الطمأنينة في دواخلنا..

نحنُ إناث يا عروة، أظنُّ أنك تعرف تمامًا ما معنى أنثى !!

كل أنثى منا يعجبها جدًا أن تصادف رجلًا يهتم بتفاصيلها، لا يجعل للبرودة طريقًا لجسدها ولو كانت عن طريق يديه، وإن لمسها قام بتدفئةِ يديه، ولا يضعُ إلّا عطرًا مميزًا لـ لقائه بها، يخرقُ لأجلها جميع عادات وتقاليد مجتمعنا ليحظى بها، يعشقها، يمسكُ يديها بكلتا يديهِ وقلبه وكأنها معجزته الأولى، وحصتهُ الأخيرة من الفرح، وجبر خاطِره في هذه الدنيا، وتحبُّ أن يكون رجلًا عميقًا يفهمُ أن متعةَ الأشياء تكمنُ بالشعور، وأنَّ التفاصيل هي لبُّ الحياة...

وإن صادفت واحدة منّا هذا الرجل، تعتقدُ بأنه حلم، ولا علاقةَ له بالواقع، بل إنه من كوكبٍ آخر، ومن شدةِ ذهولها تتجمدُ الكلماتُ في حنجرتها وتصبحُ ممن يفتقرونَ لأسلوبِ تعاملٍ خاص لذلك النوع من الرجال، ولا تحركُ ساكنًا حينها.

مرَّت تلك الليلة بسلامٍ ربما، استيقظت شام في صباحِ اليوم التالي على صوتِ ممرضة تقول لها: شام، شام، لديكِ جولة صباحية.

استيقظت شام بعد عناء، لا تعلم كيف أخذها النوم الليلة الماضية، استعدَّت للعمل، لم يكن بمقدورها أن تشرب القهوة ولا أن تستمع لفيروز، بل ابتدأت عملها فورًا...

قامت بجولتها المُعتادة كأي يومٍ طبيعي، تُعطي العلاجَ للمرضى، ومن ضمنِ جولتها كانتْ تمرُّ على غرفةِ العنايةِ المركزة لتطمئن على وضعِ وطن الصحي..

كانت النيرانُ تحرقُ جوفَ أبويه من الخوفِ عليه، فقد غابَ عن البيتِ لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ متواصلة، وحاولا الاتصال بهِ مرارًا وكان هاتفهُ مغلق، إلى أنْ سمِعا بالانفجارِ الذي حدث على إحدى القنواتِ الفضائية، والصدمة رُسِمت على ملامحهم حين عرفا أنَّ الانفجار حدثَ في ذاتِ المنطقة التي تواجد فيها وطن، فاتصلَ أبو محمد بأبنائهِ جميعهم وطلبَ منهم الاجتماع، فاجتمعوا..

أبو محمد: إنَّ وطن غائب عن البيتِ منذُ ثلاثةِ أيام، أريدُ منكَ يا محمد أن تسألَ عن أخيكَ فأنتَ لكَ علاقات عدّة..

محمد: اعذرني يا والدي، لا أستطيع ..

أبو محمد: لمَ لا تستطيع؟

محمد: موقفُ وطن السياسي، ومكانتي في الدولة، تمنعني من السؤالِ عنه تحتَ أي ظرفٍ كان، فاعذرني ...

إسلام: أُخوّتنا تفرضُ عليكَ السؤال عن وطن يا محمد. !!

محمد: ابقَ جانبًا أنت، لا تتدخل فيما لا يعنيك ..

أبو محمد: محمد!!! احترم وجودي، فأنا لم أمت بعد ..

محمد: لم أقصد يا أبي، في نهايةِ الأمر لا أستطيع السؤال عن وطن..

ووقفَ يطلبُ الإذن بالمغادرة بسببِ عمله، فوقفت والدته تبكي قائلة: أرجوكَ يا بني، اسأل عن أخيك، إنني خائفة عليه..

إسلام: اترك منصبكَ جانبًا واسأل عن وطن..

ووقفَ الجميع يطلبونَ من محمد نفس الطلب، فما كانَ من محمد بعد وقوفهم جميعهم ضدّه، إلّا أنْ يوافق ..

خرجَ من بيتِ أبيه، والجميعُ ينتظرُ منه خبرًا عن وطن ..

عروة، أيعقلُ أن تكون الأُخوّة مجرد مسمى فقط؟ ويعقلُ أنْ تُولِّد الغيرةَ الكراهية بين الأُخوة ؟

أتذكر أخاكَ سهيل يا عروة؟ حينَ كانَ يغار منك فقط لأن والدكَ كان يميزكَ عن بقيةِ إخوتك وهذا ما جعله يشعرُ بالنقص والكره تجاهك أيضًا، الأمرُ لا يمكنُ تصوره، أن أصل لمرحلة يُجرَح فيها أخي أمامي ولا تتحرك مشاعر الخوف داخلي عليه، فكيف لو كانَ أحدٌ منّا في موضعِ محمد ووطن ؟ كم سيكونُ الأمرُ مثيرًا للاشمئزاز؟، بعدَ مرورِ أسبوع كامل لوطن في العنايةِ المركزة، طُلبَ من شام أن تبقى بجانبهِ طوالَ الوقت خوفًا من نزيفٍ داخلي مفاجئ، إلى أن يستقرَ وضعه ويتم نقله إلى غرفةٍ أخرى ..

وهذا ما فعلتهُ شام، أصبحت مرافقةً لوطن طوال اليوم، وأثناءَ الليلِ أيضًا..

اتصلت بوالدتها لتخبرها أنها ستغيبُ عن البيت، فأوصتها والدتها بأن تنتبهَ لنفسها جيدًا، فقد اعتادت أحيانًا على غيابِ ابنتها

بسبب العمل، في نفسِ الوقت كان محمد قد أعطى أمرًا بالبحثِ عن وطن في جميعِ المشافي، كان أحد الممرضين ممن أسعفوا وطن قد أخذَ كل ما في جيوبه وقام بتسليمه لقسم الاستقبال في المشفى، وتم أخذ بيانات وطن كاملة وتسجيلها، وخلال أربعٍ وعشرين ساعة أتاهُ الخبر المنتظر لمحمد، فقامَ بالاتصالِ بأبيه وإخبارهِ عن اسم المشفى، فذهبَ الجميعِ لزيارته إلّا محمد لم يذهب، وصلوا إلى المشفى ودخلوا مسرعينَ، خائفين..

ركض إسلام إلى أحد موظفي الاستقبال وألقى السلام، ومن ثمَّ سأل عن وطن، فطلبَ منه موظف الاستقبال أن ينتظرَ لثوانٍ ليبحثَ عن اسمِ وطن، فجلسَ إسلام بجانبِ والديه وإخوته، بعد دقيقةٍ بالضبط نادى عليهِ موظف الاستقبال وقام بدلِّهِ على الغرفة التي يمكثُ فيها وطن .

فصعدوا جميعًا وكأنهم يُسابقون الوقت للوصولِ لغرفةِ وطن من شدةِ خوفهم عليه، كانت شام تجلسُ بجانبِه، تفاجأت بدخولِ والدته، فسمحت لها بالدخول، وسألتها من أنتِ يا أُمي؟

أم محمد: أنا أم وطن يا ابنتي، أخبريني أرجوكِ أهو بحالةٍ جيدة ؟

فقامت شام بتهدئتها وأخذت بيدها لترى وطن، كانَ الجميع يقفون عند الباب، ابتسمت شام في وجوههم قائلةً: لا تخافوا، فوضعهُ الصحي أفضل نوعًا ما، فقد انتظمت دقات قلبه وعاد ضغطه لمستواه الطبيعي، لكنه في غرفةِ العناية المركزة حتى يستقر وضعهُ أكثر، ونعطيه المهدئات ليبقى نائمًا ...

أبو محمد: أرجوكِ يا ابنتي نريد أن ندخل ونراهُ عن قرب

شام: لا يمكن يا عم، لا نُفضّل أن يكون هناكَ أشخاص كُثُر في الغرفة، أنا أعتذر فوضعه لم يتحسن لدرجة أن يدخل عليه أحد، يكفي أنَّ والدتهُ اطمأنَّت عليه، ولا فائدة من وجودكم هنا، الأفضل أن تعودوا للبيت، وأن يترك أحدكم رقم هاتفه؛ لنستطيع الاتصال بكم في حالِ نقلهِ إلى غرفة أخرى، لتقوموا بزيارته، وأخذت تُطبطبُ على يد والدة وطن قائلةً: لا تخافي يا أمي سأنتبه له، أنا بجانبهِ طوالَ الوقت ..

فعادوا كلهم للبيت منتظرينَ أن يصحو وطن ويصبح بأفضلِ حال، كانت أمه لا تنامُ بشكلٍ كافٍ ولا تأكل أيضًا إلّا بإجبار أولادها لها.

وأمُّ شام كانت تصلي وتدعو لشام بشكلٍ متواصل، وتتصلُ بها دائمًا؛ لتطمئن عليها ..

بعد مرورِ يومينِ بالضبط، بدأ وطن بالاستيقاظ، فكانت شام تجلسُ على الكرسي بجانبِ سريره، حينَ شعرت به يتحرك اقتربت منه مبتسمة، وعندما فتحَ عينيه قالت له: حمدًا لله على سلامتك، ثمَّ عادت بعد ذلك للجلوس كما كانت قبل استيقاظه، قال لها: أريدُ ماء، فأسقتهُ قليلًا من الماء، وبقيت جالسة بجانبهِ إلى أن حلَّ الليل..

رنَّ هاتفها، فردت: آلو

أم شام: كيف حالكِ يا شام؟ أأنتِ بخير يا ابنتي ؟

شام: نعم يا أمي أنا بأحسنِ حال، لا تقلقي، كيف حال علي ؟

أخذ علي الهاتف من يد أمه: شام! إنني أحبكِ كثيرًا، وأخذَ يُسمي لها الألعاب التي يحبها؛ لتجلبها له .

شام: وأنا أحبكَ أيضًا، انتبه لأمي فأنت رجلُ البيت ..

أم شام: انتبهي على نفسكِ يا ابنتي، تصبحين على خير.

أغلقت شام الهاتف، وكان هناكَ كتابًا بجانبها، ففتحتهُ لتكمل قراءته..

وطن: أهذهِ والدتك؟

ابتسمت شام: نعم إنها والدتي تتصل للاطمئنان عليّ، أودُّ إخبارك أن أهلك قاموا بالمجيء إلى هنا، لكنك كنتَ نائمًا بسبب المهدئات، فطلبتُ منهم عدم الرجوع إلى المشفى لحين الاتصالِ بهم؛ كي لا نُحملهم فوق طاقتهم بمجيئهم كل يوم .

وطن: أكانت أمي معهم ؟

شام: نعم، كانت خائفة عليك ..

وطن: وأبي؟

شام: كانَ معهم أيضًا..

وطن: أمي امرأة قوية، تخافُ علينا كثيرًا، مستعدة أنْ تفدي كل منّا بروحها، وأبي رجل مكافحٌ كانَ دائماً يطلبُ منا أن نعتمدَ على أنفسنا لنكون ناجحين في حياتنا ..

قامت شام ووقفت بجانبِ النافذة، وأخذت تنظرُ للسمّاء، وقالت: أنا أيضًا لدّي أمٌ عظيمة أَفنت حياتها في سبيلِ توفير الحياة الكريمة لي ولأخي، فهي السبب بعدَ توفيقِ الله بوصولي لوظيفةِ أحلامي وهي أن أكون ممرضة تُداوي الجروح .

وطن: وماذا عن أبيكِ ؟

شام: كانَ أبي رجلاً طيباً، يفعلُ المستحيلَ لأجلنا، كانَ الأمان لنا، وبدأت دموعها تهطلُ بهدوء ..

وطن: لماذا كان !!!! أهو بعيدٌ عنكم ؟

شام: أيقظنا ذاك اليوم لنصلي الفجر، ولأكمل دراستي فقد كنت في الثانويةِ العامّة، حضَّرَ لي الشاي بعد أن أنهينا الصلاة سويًا واطمئنَّ علي، وحضَّر نفسهُ للخروج إلى العمل، قبَّلَ جبيني ودعا

لي بالتوفيق، وأخبرني أنه سيعودُ لنأكل سويًا على الغداء، لكنه لم يعُد ..

وطن: أين ذهب ؟؟

شام: أتى موعدُ الغداء، ولم يأتي، وأتى موعد العشاء ولم يأتي، وانتظرناه لصلاةِ الفجر ولم يأتي أيضًا، انتظرناهُ كثيرًا ولم يعُد .

وطن: ألم يصلكم عنه أي أخبار ؟

شام: أبدًا، لكنني أراه دائمًا في أحلامي منذ ذاك الوقت، يوقظني كل يوم لأُصلّي الفجر، ويوصيني دائمًا أن أنتبه لنفسي، إنه قريب منّي ..

وطن: أنا أعتذر، لم أقصد أن أُذكّركِ بشيء ربمّا هو موجعٌ بالنسبة لكِ ..

شام: أبدًا، فأنا لا أنسى والدي لأتذكره ..

مسحت دموعها والتفتَتْ لوطن مبتسمةً قائلة: الآن حان موعدُ الدواء..

مرَّت الليلة الأولى بسلام نوعًا ما، بَقِيت شام تطمئنُّ على وطن كل ساعتين، إلى أن أتى الصباح، فاستغلَّت شام أنه نائم، وتوجهت لقسمِ الاستقبال تطلبُ منهم رقم أهل وطن؛ لتتصل بهم.

شام: آلو، مرحبًا.

أبو محمد: آلو، من معي ؟

شام: أنا الممرضة شام، التي كانت بجانبِ ابنكم وطن في المشفى.

أبو محمد: تذكرتكِ يا ابنتي، قولي لي هل وطن بخير ؟

شام: نعم يا عم، لقد استيقظ لكنه لم يخرج بعد من غرفةِ العناية المركزة، اتصلتُ بكم؛ لأطمئنكم عنه ..

أبو محمد: ومتى يمكننا زيارته؟

شام: حينَ ننقلهُ لغرفة أخرى سأقومُ بالاتصال بكم؛ لتقوموا بزيارته.

أبو محمد: حسنًا يا ابنتي، شكرًا جزيلًا، إلى اللقاء ..

أقفلت شام الخط وعادت مسرعة لتبقى بجانبِ وطن ..

حين دخلت الغرفة، سمعته يُنادي، فقالت له: ما بك؟ أتشعرُ بالألم؟

وطن: نعم قليلاً، ومن ثمَّ طلب منها أن تسقيهِ قليلاً من الماء، ففعلت..

قاطعها صوتٌ في الخارج، صراخٌ قوي مصحوبٌ ببكاء، فخرجت مسرعة وإذ بطفل صغير يحملهُ والده، ينادي ويطلبُ المساعدة لإنقاذ ابنه، ركض باتجاهه الممرضون وأخذوا ابنه وذهبوا بهِ لإحدى غُرفِ الطوارئ، والطفل يبكي بأعلى صوته، ووالدهُ يقف في زاويةِ الغرفة لا يدري ماذا يفعل، فقدمت له إحدى الممرضات الماء وطلبت منهُ الهدوء والبَقاء بجانب ابنه..

بعد مرورِ نصفِ ساعةٍ من عمل الإسعافات الأولية للطفل قاموا بإعطائهِ المهدئات لينام بعد بكاء دامَ لنصفِ ساعة وأكثر، جلسَ والدهُ بجانبه، أطلَّت عليهِ شام من بابِ الغرفة، فسمعته يقول لابنه وهو نائم: لا أعرفُ ما هو شعوري الآن يا بني، أأبكي على فراقِ أمك، أم أبكي من خوفي عليك الآن؟، ووضعَ رأسه في حضنِ ابنهِ وأجهشَ بالبكاء، وكأنه يتوسلُ له بأن يكون بخير ..

فبكت شام، حاولت التماسك لكن عبث، فدموعها كانت تحرقُ خدَّيها، شعرت بفقدانها لأبيها بطريقةٍ مختلفةٍ هذه المرّة، حينَ رأت ذاكَ الرجل يبكي بحرقةٍ من خوفه على من بقي له في هذه الدنيا بعد وفاةِ زوجته، طفلٌ صغير لم يتجاوز الخامسة من عمره، كيفَ سيعيش دون أمه؟ وإن كانَ أبوهُ على قيدِ الحياة، سيشعر بأن يده اليُمنى مبتورة؛ فالأم لا يمكنُ أن يكررها الزمن، ولو جاء مثلها ملايين الأشخاص الذينَ يحملونَ بداخلهم حنانًا لا يوصف ..

الفراق صعب يا عروة، فكيف إن تمثَّلَ بفقدانِ أحدِ الأبوين ؟

أيمكنكَ استيعاب أنَّ الذي فقدَ أحدَ أبويه كأنه فقدَ أحد يديه، أو ربما يفقد نفسه بفقدانِ أحدهما..

إنني أخافُ على نفسي دونَ أبواي يا عروة؛ فهما جيشي الوحيد في وجهِ كل ما أواجهه من حروب، فأدعو الله دائمًا أن لا أرى أيامًا دونهما، وألّا يفقدَ أحدٌ ما إحدى يديه، بفقدانِ أبويه، فكم هو صعب على الإنسان أن يعيشَ مبتورَ اليدين .. !

مكثَ وطن في غرفةِ العناية المركزة لمدةِ شهر كامل، كانَ يرى شام كل يوم، حينَ يستيقظ وحين ينام، ويتبادلان أطراف الحديث، يتكلمان في الأمورِ الحياتية أو في طبيعةِ عملها، بدأ وطن بالتحسنِ نوعًا ما لكن جروحه كانت خطيرة لدرجة أنه لا يمكن إخراجه من المشفى إلى أن يُشفى بشكلٍ تام، وكانت الزيارات ممنوعة منعًا باتًا، لهذا السبب كانت تتصل شام بأهله باستمرار؛ لتطمئنهم على صحته..

في أحدِ الصباحات كانت شام تقفُ بجانبِ النافذة تشاهدُ شروق الشمس، فاستيقظ وطن ورآها تقفُ وتنظرُ للسماء وكأنها تبحثُ عن شيء ما يبعث الطمأنينة في نفسها..

وطن: أتحبين شروق الشمس؟

شام: صباحُ الخير، كيف تشعر ؟

وطن: بخير، لم تجيبيني، أتحبّين شروق الشمس ؟

شام: نعم أحبه؛ فشروقُ الشمس يخبرنا بأنَّ هناك أمل جديد كل يوم، بالرغم من كل الظروف التي تمرُّنا ..

وطن: وما رأيكِ بالغروب؟

شام: الغروب جميل أيضًا لكن في أوقات معينة ..

وطن: وما هي الأوقات المعينة؟

شام: الغروبُ في الشتاء مثلًا شيءٌ لا يمكنُ وصفه، حينَ تستقر قطرات المطر على نوافذِ البيوت والسيارات، وأشعةُ الشمس تكونُ خفيفةً نوعًا ما، والأشجار تتمايل مع نسمات الهواءِ المارّة ..

وطن: كم مكثتُ هنا؟

نظرت لهُ شام باستغراب: قد أتممتَ الشهر ..

وطن: شهرًا كاملًا !! ولا أعرفُ ما اسمكِ ؟

شام: شام، اسمي شام ...

وطن: كم هو جميلٌ اسمكِ ..

شام: أشكرك ..

وقامت بالاقتراب من سريرهِ تلملمُ أغراضها ومن بينِ هذه الأغراض كتابًا كانت تقرأ فيه ..

فسألها وطن: أتقرئين أيضًا؟

شام: نعم أقرأ، لكنني لم أقرأ منذ فترة، وعدتُ للقراءة بفترةِ جلوسي هنا بجانبك ..

وطن: إذًا أنتِ مدينة لي بشكر..

شام: ماذا تقصد، لم أفهمك !!!

وطن: لولا الانفجار الذي حدث لما دخلتُ المشفى، وما عدتِ تقرئين، وأخذَ يضحك على كلامه .

فابتسمت شام وقالت له: إذًا شكرًا لك ..

وأخبرتهُ أنها تتصل بأهله باستمرار؛ لتطمئنهم عليه ..

فقال لها: وها أنا مدينٌ لكِ بشكر؛ بسببِ اتصالكِ بهم وتهدئتهم..

فحرَّكت رأسها بنعومة وابتسمت قائلة: العفو ..

وأعطتهُ الدواء ....

اتصلَ أبو محمد بمحمد أكثرَ من مرة؛ ليطمئنَ عليه، لكن محمد لم يكن يرد، بل كانَ يرى مكالمةَ أبيهِ ولا يكترث..

فطلب أبو محمد من إسلام أن يذهبَ لمحمد ليطمئنَّ عليه، ويعرف ما أسباب عدم مجيئهِ لزيارتهم، فمن الأسئلةِ المحيرةِ التي كانت تتراودُ لذهنِ أبي محمد، ما هي الأسباب التي جعلت محمد بهذا البعدِ عنهم، بل أنه لا يكترث لهم إطلاقًا، ولا يحاولُ التقرب منهم، وفوق هذا كله لا توجدُ لديه أيُّ اعتباراتٍ تجعلهُ يعترفُ بأُخُوَّتهِ لوطن تحديدًا، ولا إجابة صريحة لأيّ سؤال !!!

ذهبَ إسلام ليقابل محمد في مكانِ عمله؛ ليتحدث معه بخصوص الموقف الذي اتخذه من وطن بسبب موقفهِ السياسي ..

إسلام: يا محمد، وطن مسؤول عن موقفه السياسي ولا علاقة لكَ به، نحنُ أخوة بالرغمِ من كل شيءٍ يا محمد ..

محمد: كلّا، بل يجبُ عليهِ احترام عملي، والاستغناء عن موقفهِ لأجلي ..

إسلام: وإن كنتَ مكانهُ يا محمد، هل ستغير شيئًا من قناعاتكَ من أجله ؟؟

محمد: إسلام، لا أريدُ أن أتكلم كثيرًا في نفسِ الموضوع، فمشكلتي مع وطن أكبرُ بكثير...

إسلام: أخبرني إذًا ..

محمد: حينَ كنا صغارًا كانَ أبوكَ يحبه أكثر منّي بحجة أنهُ الصغير، وحين أتيت أنت وعمر ونور وزهرة، بقي أبوك يميزهُ عن الجميع ..

إسلام: أنا مصدوم ممّا أسمع يا محمد، كلنا أخوة ولا فرقَ بيننا..

فجأةً دخلَ رجلٌ عليهما، فارتبكَ محمد، وطلب من إسلام الذهاب للبيت، فاستأذن إسلام وعادَ للبيت كما طُلِبَ منه ..

بعد مكوث وطن لمدةِ شهر كامل في العنايةِ المركزة، حضَّرت له شام غرفة عادية، وتمَّ نقله، كان معهُ في نفسِ الغرفةِ طفلينِ صغيرين " زيد وزين " يبلغانِ من العمرِ ستّ سنوات، كان يعاني كلٌّ منهما من جروح بسيطة إثر وقوعهما أثناء اللعب معًا، عندما نُقلَ وطن للغرفة كانا يلعبانِ أيضًا، وصوتُ ضحكهما يملأ الغرفة،

فاستقبلا وطن بابتسامةٍ لذيذة، وعند رؤيتهما لشام، طلبا منها أن تلعب معهما، فاحتضنتهما وجلست تشاركهما اللعب...

بعدَ مرور ربع ساعةٍ بالضبط استأذنت شام للقيام ببعضِ الأعمال، وقالت لوطن قبل الخروج: سأقوم بالاتصالِ بأهلكَ ليقوموا بزيارتك، واتجهت ناحية الباب فنادى عليها أحدُ الصغيرين، فردت عليه قائلةً: حبيبي، ماذا تُريد منّي ؟

فأجابها: أريدُ أن تبقي هُنا ..

فقالت له: سأعودُ سريعًا، لا تقلق، ومسحت على رأسهِ ورأس أخيه، وقبّلتهما، وخرجت

ووطن ينظرُ إليها باستغراب؛ فالتعاملُ مع الصغار يحتاجُ قلبًا لينًا ليحتوي طفولتهم، اتصلت شام بأهلِ وطن، وطلبت منهم الحضور لزيارته، وقدَّمت في نفس الوقت لإجازة، وأوصَتْ إحدى الممرضات بأخذِ مكانها إلى حين عودتها ..

وصلَ أهلُ وطن بعد ساعةٍ من اتصال شام بهم، سألوا عن غرفتهِ وذهبوا إليه، دخل الجميعُ للغرفةِ بلهفة، الجميع إلّا محمد ..

بدأت أمه بتقبيلهِ والبكاء، وتسأله: هل أنتَ بخيرٍ يا بني ؟

وطن: نعم يا أمي، لا تبكي ..

أبو محمد: كفى بكاءً يا امرأة ألم تتعبي ؟

فضحك الجميع بمزاحِ والدهم ..

دخلت الممرضة المسؤولة عن وطن لحينِ رجوعِ شام " تُدعى مروة "، سألتها أم محمد: يا ابنتي أين شام ؟، الممرضة التي كانت برفقة وطن في غرفةِ العناية المركزة.

مروة: إنها في إجازة؛ ذهبت لتطمئنَّ على أهلها، وستعودُ خلال يومين ..

أبو محمد يوجه الكلامَ لوطن: لقد كانت تتصل بنا باستمرار لتنقل لنا أخبارك، وهي التي اتصلت بنا اليوم لنأتي لزيارتك ..

وطن: جزاها الله كل خير، أين محمد يا أبي؟ لمَ لم يأتِ معكم ؟

سكتَ الجميع، ينظرونَ لبعضهم، ماذا سيجيبونَه !! فتداركَ إسلام الموقف بقوله: أنتَ تعرف يا وطن أنه بسببِ عمله لا يستطيع

المجيء، فضحكَ وطن؛لأنه يعرف سبب عدم مجيء محمد، لكنه لم يُركز في الأمرِ كثيرًا، وبدأ يسأل الجميع عن آخر الأخبار، فأخذهم الحديث.

عروة، حينَ نسألُ أسئلة معينة لأحدٍ ما ونحنُ نعرف إجابتها مُسبقًا، يبدو الأمر مثيرًا للسُّخرية، أو ربما يبدو كمواساةٍ من نوعٍ آخر بأن نقوم بخلقِ تبريرات لا وجودَ لها، فقط لأننا لا نريدُ معرفةَ الحقيقة ..

وصلت شام للبيت فاستقبلها علي، ركض باتجاهها واحتضنها، كانت تشعر بالأمان حين يركضُ اتجاهها فاتحًا يديه مبتسمًا، وحينَ ترى ابتسامةَ والدتها، فقد كانت بمثابة تعويض عن غياب أبيها.

أم شام: كم من الوقت ستبقين هنا ؟

شام: طلبتُ إجازةً لثلاثةِ أيام، فقد اشتقتُ لكما، وأودُّ قضاء بعض الوقتِ معكما بعد غيابي لمدة شهر، كنتُ مسؤولة عن مريض دخل المشفى إثرَ تأثره بجراحٍ بليغة نتيجة انفجار قوي أدّى لخسائر كبيرة في الأرواح ..

أم شام: وكيفَ تركتهِ وجئتِ؟؟

شام: لقد تحسنَ يا أمي وتم إخراجه من غرفةِ العنايةِ المركزة، وقمتُ بتوصية إحدى الممرضات عليه، لحينِ عودتي للعمل بعد ثلاثةِ أيام..

علي: ستلعبين معي ؟

شام: نعم سنلعبُ سويًا، وستنامُ الليلةَ بجانبي أيضًا..

كانَت الراحة تملأ بيت شام، فحبُّ والدتها لها ولأخيها كان مُضاعفًا لتعويضهما عن غياب والدهما..

كانت ليلةً مميزةً فقد نامت شام في نفسِ الفراش مع والدتها وعلي، وسمعا من والدتهما قصة إلى أن ذهبا في نومٍ عميق، وفي نفسِ الوقت كانت والدةُ وطن تنام قريبةً منه، بعدما رفضت الرجوع مع زوجها وأولادها للبيت وفضَّلت البقاء بجانبِ وطن؛ ليرتاح قلبها، كانَ يشعرُ بالأمانِ أيضًا بقربِ والدته..

عروة، أتعلم أن النوم في أحضانِ أمهاتنا يُشعرنا بالأمان المُطلق؟ وأننا يمكننا امتلاكُ الدنيا بالنوم بينَ أيديهن؟

في صباحِ اليومِ التالي، مرَّت الممرضة مروة على غرفةِ وطن، كانَ مستيقظًا..

مروة: صباح الخير.

وطن: صباحُ الخير.

بدأت مروة بالكشفِ على جروحه، وقامت بقياسِ ضغطه، وأثناء قيامها بعملها، قاطعها زين بقوله: أينَ شام؟؟

مروة: ستعودُ سريعًا حبيبي، كيف حالكَ أنت ؟

زين: أريد شام، أريدها أن تلعب معي ..

مروة: سترجع بعدَ غدٍ إن شاء الله .

وسألت أمهما عن أخذهما للدواء في موعده، فقالت لها: نعم، يأخذونَ الدواء في موعده، لكنهما يسألان عن شام كثيرًا ..

مروة: إنها في إجازة، ستعودُ بعد غدٍ إن شاء الله .

وتمنَّت لهما الشفاء العاجل وخرجت من الغرفة لإكمالِ عملها ..

استيقظت أم محمد لصلاة الضُحى، سمعها وطن وهي تدعو لشام حينَ أنهت صلاتها وجلست في مكانها للاستغفار، استغربَ الأمرَ قليلًا، فلمَ تدعو لشام؟

بعدَ دقائق معدودة جلست أمهُ بجانبه تمسحُ على رأسه، فسألها: أمي لقد سمعتُ اسمَ الممرضة شام في دعواتك، ما السبب ؟

فأجابته: حينَ جئنا إلى هنا عند سماعنا لخبرِ الانفجار الذي حدث في نفسِ المنطقةِ التي كنتَ فيها، وبعد غيابكَ لثلاثةِ أيامٍ متواصلة، كانت موجودة بجانبكَ في غرفة العناية المركزة، حينَ كنتُ أبكي من خوفي عليك كانت تطمئنني بأنكَ ستكونُ بخير وأنها ستبقى بجانبك، وستتصلُ بنا في حالِ تحسنك، إنها خلوقة جدًا..

وطن: وكيف عرفتِ أنها خلوقة ؟

أم محمد: سيماهم في وجوههم يا بني، فالإنسانُ يُعرفُ من ملامحه..

ما رأيك يا عروة، أيمكننا الحكمُ على الأشخاصِ من ملامحهم؟ أو معرفةِ أخلاقهم على الأقل من طريقةِ حديثهم معنا؟

لمعرفة إن كُنّا قادرين على التعاملِ معهم بثقة، وإن كانَ يمكننا ذلك، لمَ ندمنا على معرفتنا لكثيرٍ من الناس، وإدخالهم لحياتنا؟

لمَ بَتَرنا أصابعنا من كثرةِ العضِّ عليها من شدة الندم الذي أكل أرواحنا بسبب من أدخلناهم حياتنا واعتبرناهم شيئًا جميلًا، فكانوا عكسَ ذلكَ تمامًا، هذهِ كانت مشكلتي الكبرى يا عروة أنني أثقُ سريعًا بمن حولي، وأحكم عليهم من طريقتهم اللطيفة بالحديثِ معي، في ظلِّ أن أمي كانت دائمًا تُحذرني، لكنني لم أكن أسمع، وفي نهايةِ الأمر تكن أُمي على حق، لكن بالمقابل هناكَ أشخاص كانوا عندَ حسنِ ظنّي فكانوا كما توقعتهم وأكثر، كانوا من القلةِ الصادقةِ في حياتي ..

عادَ إسلام لزيارة وطن في المشفى وأخذ والدته للبيت، لترتاح بعد مبيتها خارجه، وليقومَ بتبريرِ عدمِ مجيء محمد لزيارة وطن، وقال له بعد ذلك: وطن قُم بالاتصالِ بي إذا احتجت أي شيء، أو قُل للممرضةِ شام وهي تتكفل بإخبارنا ..

ضحكَ وطن وقال: أنتَ أيضًا يا إسلام؟؟

إسلام: ماذا تقصد يا وطن ؟

وطن: أُمي كانت تدعو لها في الصلاة، وأنت تطلبُ منّي إن احتجتُ شيئًا أن أطلب منها وهي تتكفلُ بإخباركم ..

إسلام: إنها إنسانة خلوقة يا وطن .

ومن ثمَّ استأذنَ إسلام وأمهُ بالذهابِ للبيت، وقال أنهُ سيعودُ فيما بعد..

دخلت مروة عند خروجهم، لتطمئنَّ على وطن، فقال لها بطريقةٍ فُكاهية: ألم تتعبي من مجيئكِ اليوم كثيرًا ؟

مروة: هذا واجبي، فقد أوصتني عليكَ شام، لحين عودتها للعمل.

وطن: ومتى تعود؟

مروة: غدًا إن شاء الله.

كانت شام تحضّرُ نفسها للعودةِ للعمل، بعد قضاءِ ثلاثة أيامٍ مع والدتها وأخيها، وفي صباحِ اليومِ التالي وصلت للمشفى باكرًا،

استقبلتها مروة، وقالتْ لها أنَّ " زيد وزين" قد سألا عنها، والمريض الذي كان في العنايةِ المركزة " وطن" ووالدتهُ أيضًا ..

شام: الآن سأمرُّ على الجميعِ يا مروة، شكرًا لكِ ..

بعد مكوثِ وطن في العنايةِ المركزةِ لمدةِ شهرٍ كامل، كان يرى شام طوالَ الوقت، وكانت أول وجه رآه حين استيقظ، كان قد اعتادَ على وجودها بالقربِ منه، وعندما تكلمت والدتهُ عنها، وإسلام أيضًا، وسؤال الطفلينِ عنها بشكلٍ مستمر، جعلهُ ينتبه لغيابها..

الساعة التاسعة صباحاً، حان موعدُ الجولة اليومية لشام على غرفِ المرضى، أطلَّت برأسها وهي مبتسمة: صباحُ الخير .

فابتسما لها زيد وزين، فركضت لهما واحتضنتهما بحرارة.

قالت لها أمهما: كانا يسألانِ عنكِ بشكلٍ مستمر يا شام.

فنظرت شام للصغيرين قائلةً: أعتذرُ على الغياب يا صغاري، لكنني كنتُ في إجازة وها قد عُدت، وسأراكما دائمًا ..

والتفتَتْ لوطن فابتسمَ لها، فسألتهُ كيفَ حالكَ اليوم؟ أكانت تأتي زميلتي لتطمئنَّ عليك؟

وطن: نعم كانت تأتيني باستمرار، أنا الآن في تحسن، لكنَّ الألم يذهب ويجيء ..

شام: لا تقلق ستصبحُ بخير ..

وقالت أنها ستذهبُ لتكمل عملها وستعودُ كل ساعتين للاطمئنان عليه، وطلبت منه عدم التحرّك..

كانَ الوضع مستقرًا نوعًا ما، إلى أنْ دخَلَ مجموعة من الصحفيين؛ لالتقاطِ الصور في المشفى وما حولها، فقابلتهم شام بطريقةٍ هجومية قائلة: لا يُسمحُ لكم بالتقاطِ الصور؛ حفاظًا على خصوصيةِ المرضى، فلن أسمح لكم بهذا، لو سمحتم تجنبًا للإحراج، اخرجوا من هنا، ووقفَ في صفها بقية الممرضين ومن ضمنهم " مروة وأحمد" ،كان وطن في سريره، حين انبعثَ صوتُ صراخ شام من خارج الغرفة، حاول الوقوف على قدميه، ومشى بصعوبة ليرى ما الذي يحدث..

فرأى شام، تقفُ في وجهِ الصحفيين؛ لمنعهم ممّا يريدون فعله، تفاجأ بقوتها، فلم تكن ظاهرة بكلِّ هذه القوة، عادَ متراجعًا إلى سريره، وتذّكر الموقف الذي حدثَ بينهما ..

ومضى اليوم وهو يفكر بما رأى من شام، وما حدثَ بينهما، فقرَّرَ أن يعتذر لها؛ لأنهُ شعرَ بصعوبةِ الموقف ..

وزارته مروة مساءً، فقال لها: أين شام؟ لمَ لم تأتي ؟

مروة: إنها في غرفةِ الممرضات تقومُ ببعضِ الأمور، فطلبت منّي الاطمئنانَ عليك ..

ومرَّت تلك الليلة ووطن يفكر، والشعورُ بالذنب يتملكه؛ لأنه كانَ سببًا في بكاء شام ذاك اليوم، وشاهدَ دموعها مرة أُخرى حين وقفت في وجهِ الصحفيين لمنعهم من التصوير..

في صباحِ اليومِ التالي، خرجت شام من غرفة الممرضات، متجهة لغرفةِ وطن، كان الطفلانِ نائمان، وأمهما غير موجودة

شام: صباح الخير

وطن: صباح الخير

شام: كيف حالك اليوم، هل تشعر بتحسن ؟

وطن: الحمدلله، أشعرُ بتحسن، لكن متى سأخرج؟

شام: حين تُشفى تمامًا، فيجب علينا أنْ نطمئنَّ على صحتك

فقاطعَ عملها بقوله: أنا أعتذر لو كنتُ سببًا ببكائكِ ذاك اليوم .!

شام: أيُّ يومٍ بالضبط ..؟!

وطن: حين كنتُ ألتقطُ الصور لإحدى جثثِ الأطفال، وقمتِ أنتِ بمنعي، ومن ثمَّ حدثَ سوء فَهم وانتهى ببكائك ..

شام: لا تعتذر، هذا ليس ذنبك إنه عملك، أنا فقط أتحسسُ من تصويرِ هكذا مظاهر مليئة بالدماء

وطن: أنا مجردُ صحفي ينقلُ الأحداث، ويبينُ الحقائق

شام: أعرف، لكنني ...

قاطعها مجددًا: لكنكِ لا تحبذّين أن تُنقَل هذهِ الأمور، والمحافظة على خصوصية الجرحى أو الجثث التي يتم نقلها للدفن، أليس كذلك ؟!

شام: نعم بالضبط ..

وطن: أنا أعتذر، لأنني كنتُ سببًا ببكائك ..

شام: لا تعتذر، سأذهب الآن، وسأعودُ مساءً للاطمئنانِ عليك، أتمنى لكَ الشفاء ..

وطن: إن شاء الله ..

خرجت شام من غرفة وطن مكملةً عملها بزيارةِ بقيةِ المرضى ..

واشتعلت النيرانُ في قلبِ وطن، مُحادثًا نفسه: كيف كانَ سببًا ببكاءِ شام؟!، وإنْ كانَ عملهُ فعلًا ينتهكُ خصوصية الأجساد .!!

أكملت شام جولتها، وعادت مجددًا لغرفة الممرضات لتكمل بعض الأعمال، كان الوضع هادئًا نوعًا ما، لم يكن هناكَ أي مؤشرات لأي انفجارٍ جديد، كان المرضى بحالة جيدة، والهدوء يعمُّ المكان.

أتَت طفلة صغيرة لتكسر هذا الهدوء، أطلَّت على شام، فقابلتها بابتسامة لطيفة، فما كان من شام إلّا أنْ احتضنتها وأمسكت بيدها لتوصلها إلى أمها..

شعرت شام بالأمان؛ فتفاصيل الأطفال لا تُقاوم قط، ولا يعرفون معنى للنفاق في المشاعر، كانت ابتسامة شام مُلفتة بقدرِ جمالِ شروقِ الشمس على أرصفةِ شوارع دمشق في يومٍ ممطر ..

كانت الطفلة تُحادث شام بلطافةٍ لا مثيل لها وما إنْ اقتربنَ من غرفةِ ذوي الطفلة، حتى أطلَّ وطن على شام والطفلة بابتسامة، ثم بدأ الحوار:

- وطن: مرحبًا

- شام: أهلًا

- الطفلة بضحكة رقيقة رفعت يدها لتُرَّحب بوطن بطريقتها، فبادلها التحية

- بادرَ بالسؤال لشام: كيف حالكِ.. ؟!

- شام: الحمدلله، وأنتَ كيف حالك ؟! ألم أطلب منك عدمَ التحرك والنهوض من سريرك ..؟

- وطن: نعم صحيح، لكنني بخير الحمدلله

بمرور أحمد، أوقفتهُ شام قائلةً: لو سمحتْ يا أحمد، أوصل وطن إلى سريره .

ثمَّ طلبت الإذن بالذهاب؛ لتوصل الطفلة إلى ذويها

بعد خطوتين، التفتَتْ الطفلة لتُلقي تحية الوداع على وطن، والتفتَتْ معها شام بابتسامة جذّابة، فما كان منه إلّا أن بادلهما الابتسامة وردَّ التحية للطفلة، وعاد أدراجه في غرفتهِ برفقةِ أحمد.

يبدو أنَّ هناكَ شيءٌ ما يحدث في دواخلِ وطن، ما الذي حصل حين ابتسمت له شام؟! هل لأنها تتمتع بجمالٍ مختلف؟ أم لأنه اعتادَ على رؤيتها ؟

هل الشكل يلعب دوراً في لفتِ انتباهنا للأشخاص يا عروة ؟

وهل الاعتياد لهُ دور بانتباهنا لهم أيضًا ؟

وهل الاهتمام ولو بدافعِ الواجب تجاهنا يجعلنا ننتبهُ لأمور كانت غائبة عن أذهاننا ؟

بعدَ التقاءِ وطن بأحمد، أصبحا صديقينِ نوعًا ما، فأصبحَ أحمد يحاولُ زيارةَ وطن في غرفتهِ في وقت الفراغ فقط، وإن لم يستطع الجلوس معه، كان يمرُّ من جانبِ الغرفةِ لإلقاءِ التحيةِ عليه ..

وتترددُ شام أكثر من مرة إلى غرفةِ وطن، لأنها أصبحت مسؤولة عن وضعه الصحي، دخلت عليه كالعادة، كان الطفلانِ نائمان فذهبت باتجاه سريرهما وقبّلت كُلٌّ منهما، ومن ثمَّ التفتَتْ لوطن بابتسامة كالعادة، وطلبت منهُ أن يجلسَ لتستطيع الكشف على جروحه، ووضعت هاتفها بجانبهِ على السرير، إلى حين أن تنتهي من عملها، رنَّ هاتفها فجأةً فكانت والدتها المُتصلة، فأرادَ وطن أن يناولها هاتفها، فمدَّت يدها في نفس الوقت لأخذِ هاتفها أيضًا، فتلامست الأيدي، وارتبكا كلاهما، حاولت شام ألّا تنظر في وجهه، فتداركت الموقف بقولها: احم، ها قد انتهيتُ من الكشفِ على جروحك، ثمَّ أكملت قائلةً: أنت تتحسن لكنكَ تحتاج لفترة أخرى للراحة حتى تُشفى جروحكَ تمامًا ..

فردَّ عليها وطن بابتسامة: إن شاء الله .

خرجت شام مسرعةً من الغرفة، دون أن تنظر لوطن ..

كانَ الأمر بحدِّ ذاتهِ مُربكًا يا عروة، أن تتلاقى يدان في آنٍ واحد، وإن كان لا يربطهما شيءٌ قط، أنا أتكلم من نواحي أخرى يا عروة.

كالأنوثةِ والرجولة، فحركة كهذه تستفزُ أنوثة أيٍّ منّا، ورجولةَ أيٍّ منكم، فتجعلُ للشعورِ طريقًا في أعماقنا ولو لوقت مؤقت، ويمكن أن يتأجج الشعور في كلِّ مرةٍ نتذكر فيها ما حدث فيدومُ معنا، ويستقرُ في قلوبنا ويسري سريانَ الدمِ في عروقنا ..

كانَ الأمرُ في المشفى يتأرجح بين الهدوء والضجيج، بين صراخ أحيانًا وبكاء أحيانًا أخرى، لكن الشيء الذي دام هو ضحكاتُ الأطفالِ في الغرف، وهذا ما كانَ يهوّنُ الآلام والأحزان على جميعِ الموجودين هناك، وأماكن أُخرى تفوحُ منها رائحةُ الخيانة، خيانةُ الوطن والهوية والنفس، وعلى قدر الخبثِ الذي يسكنُ النفوس تزداد تلكَ الرائحة العَفِنة..

الفرق ليسَ بالمكان، الفرق يكمنُ فينا نحن، فإن كُنّا صادقين مُخلصين سيكونُ المكانُ مريحًا عَطِرًا، وإن كُنّا عكسَ ذلك ستفوحُ رائحة المكان بطريقةٍ مقرفة، أعلمتَ الفرق يا عروة ؟

يتردّدُ رجل على مكتب محمد، يُدعى " الذئب "، بحجةِ أنهما يعملانِ معاً، ولا أحد يعرف أنَّ محمد من عبيدِ المال، ومستعد لفعل أي شيءٍ مقابل مبالغَ طائلة، ونسيَ أن مهنتهُ مهنةً شريفةً مبدأها الحقُّ والصدق، هو يعرف أنَّ ما يقومُ بهِ من أفعالٍ مُشينة تُعيبُهُ هو فقط، وهو المسؤولُ الوحيد عنها، ويمكن أن يتبرّأ والديهِ منه إن علموا بأفعالهِ تلك، لكن وبالرغمِ من هذا أصبحَ متجبرًا طاغيًا لا يهمهُ سوى المال، كانَ لقبه بين الجماعاتِ التي يعملُ معها " الفهد " ..

وصلَ محمد لبيتِ أهله لزيارتهم كواجب لا أكثر ولا أقل، وفي كلِّ مرةٍ يجلسُ فيها مع أهله ويتحدثون، ينتهي النقاش بصراخ وكلام جارح، كانوا مجتمعين يتبادلون أطراف الحديث، فقاطعهم أبو محمد بسؤالهِ لمحمد: هل زرتَ أخاكَ وطن يا محمد ؟

محمد: لا يا أبي، ولا أستطيعُ زيارتهُ قط ..

أبو محمد: لمَ؟؟

محمد: موقف وطن السياسي يقفُ بيني وبينهُ يا أبي، ولا أستطيعُ تجاوزَ هذا الأمر..

أبو محمد: وهل موقفُ أخيكَ يسببُ لكَ العارَ يا محمد؟ وطن موقفهُ واضح، فهو ضد أي شخص يعمل ضد الأجهزة الأمنية، وضد من يقومون باستغلالِ مناصبهم لمصالحهم الشخصية، وضد من يبيعونَ أوطانهم مقابلَ المال .. أبهذا يكون موقفه عار عليك؟؟

تلعثمَ محمد، ولم يستطع الإجابة، وطلبَ الإذنَ بالمغادرةِ بسبب عمله، وخرجَ مسرعًا من بيتِ أبيه..

شعرَ أن والدهُ يقصدهُ بكلامه..

عروة، كم يبدو الأمرُ صعبًا على الإنسان إن كان يمضي في طريقِ الخطأ، حينها سيشعرُ أنَّ كل الكلمات التي تقال تقصده، وكل الأنظار تتجه إليه، فيضع نفسهُ دائمًا عُرضةً للشك في ردّاتِ فعله ..

عاودت شام الاتصال بوالدتها عندما أُتيحت لها الفرصة؛ بسبب ضغط العمل، ومرَّ يومين ولم تعد لزيارة وطن، فقامت مروة بالقيامِ بهذهِ المهمة..

شعر وطن بغيابِ شام، ظنَّ أنها في إجازة،فسأل مروة عن شام أكثر من مرة؛ لمعرفةِ سببِ غيابها، لكنه تفاجأ حين عرفَ أنها ليست في إجازة، إنما موجودة في المشفى..

أول شيءٍ تواردَ لذهنه أنَّ الموقف الذي حدثَ بينهما من غير قصد جعل شام تتجنبُ رؤيته، أو ربما كانَ الاستحياء سبباً في عدمِ مجيئها لغرفته، فقرر أن يعتذر عمّا حدث ولو كان من غير قصد، فانتظر قدوم مروة مرةً أُخرى وقال لها: لو سمحتِ أيمكنني أن أسألكِ عن الممرضة شام ؟

مروة: تفضل..

وطن: ألن تأتي للاطمئنانِ علي ؟

مروة: إنها مشغولة، لكنني سأسألها.

وطن: حسنًا.

أكانَ سؤال وطن عن شام بقصدِ التبرير، أم أنه سأل عنها لسببٍ آخر مختلف كليًا يا عروة ؟؟

ذهبت مروة لشام، وطلبت منها قليلًا من الوقت للتحدّث معها، فوافقت شام ..

مروة: شام! لمَ لم تذهبين لغرفةِ وطن كالعادة ؟ ألستِ الممرضة المسؤولة عنه ؟

شام: بلى، أنا الممرضة المسؤولة عنه يا مروة، لكنني مشغولة، لمَ كل هذه الأسئلة؟ أهناكَ أمرٌ ما ؟

مروة: سألَ عنكِ أكثر من مرة يا شام ..

شام: من الذي سأل عني ؟

مروة: وطن ..

تلعثمت شام، وحاولت عدم الخوض أكثر في الحديث مع مروة، وقالت لها: سأعاود الذهاب لغرفته للاطمئنان عليهِ في المواعيد

المحددة بصفتي الممرضة المسؤولة عن وضعهِ الصحي، شكرًا مروة على تعبكِ معي في فترةِ إجازتي وهذه الأيام أيضًا..

مروة: لا شكر على واجب يا شام ..

وأكملتْ كلٌّ واحدة منهن عملها ...

فَهِمَ كلٌّ من شام ووطن بعضهما، فاختصرا الذي حدَّثا بهِ مروة بأنه مجرد سؤال مريضٍ عن ممرضته ..

بعدَ مرور يومينِ إضافيين لم تمر فيهما شام على غرفةِ وطن، واضطُرَّت للذهابِ لتلكَ الغرفة بسببِ سؤال " زين وزيد " عنها بشكلٍ متواصل، فحينَ أطلَّت من باب الغرفة وركضَ الطفلان باتجاهها يبتسمانِ لها وقاما باحتضانها، ابتسم وطن أيضًا برؤيتها، اطمأنَّت على الطفلين، وسألت وطن عن حاله..

وطن: الحمدلله، بخير .

كالعادة قامت شام بالكشفِ على جروحه، كانت أيضًا تتجنبُ النظرَ في عينيه، أكملت عملها بهدوءٍ تام والتفتَتْ للخروج من الغرفة .

وطن: شام!!

فالتفتَتْ له قائلة: نعم..

وطن: أودُّ الحديثَ معكِ رجاءً ..

شام: أهناكَ أمرٌ مهم ؟

وطن: نعم، مهم جدًا ..

يبدو أنها عرفت ماذا يودُّ وطن قوله، لكنها لم تُظهِر ذلك ..

وطن: أيمكنني رؤيتكِ في الكافيتريا ؟

شام: لا يمكنكَ الحركة كثيرًا بسبب وضعكَ الصحي، سأمرُّ عليكَ مساءً وستحدثني بما تُريد ..

وطن: بانتظارك ..

خرجت شام، لإتمامِ عملها والعودة لوطن في المساء، واجتمعَ أهلُ وطن عنده للاطمئنانِ على وضعهِ الصحي ..

الحربُ مستمرة يا عروة، لم تتوقف أبدًا، بالإضافة للحروب التي تحدثُ في الأوطانِ الصغيرة " البيوت "، فهناكَ بيوت تعلَّقُ فيها صور الأبرياء التي أُزهِقَت أرواحهم ظلمًا وبُهتانًا، وبيوت أُخرى تمتلئ من دموع نسائها على أجساد بُتِرت أطرافها وبقيت طريحة الفراش إلى أجلٍ غير مسمى ..

وحروب من نوعٍ آخر تقتلُ الشعور، وتجعل منّا مجردَ أجساد تمشي على الأرض، فكم من رأسٍ أثقلتهُ الهموم، وكم من قلبٍ أُهلِك من كثرةِ الخذلان، كلُّ حربٍ لها تبعاتها يا عروة، ونحنُ الضعفاء دائمًا ..

مرَّ اليوم كأيِّ يوم، أنهت شام عملها واتجهت لغرفةِ وطن لرؤيتهِ والحديث معه، كان الوقتُ متأخرًا، والجميعُ نائم باستثناء من يسكنُ الألم جسده، أطلَّت شام فوجدت وطن بانتظارها، دخلت وألقتْ التحية، وقالت: أعتذر إن كنتُ قد تأخرت، لكنني أنهيتُ عملي وجئتُ إلى هنا فورًا ..

جلست على الكرسي المقابل لسريرِ وطن ..

وطن: وأنا بانتظارك طوال اليوم..

شام: قل لي، ما بك؟

وطن: شام، أنا لم أقصد أن ألمس ...

قاطعته شام: أفهمُ تمامًا ماذا تقصد، أعلمُ أنك لم تقصد ..

وطن: إذًا لمَ غبتِ لأكثر من يومين ؟؟

شام: لا أعلم، كنتُ حريصةً ألّا أنظر في عينيك..

وطن: لمَ ؟

شام: لا أعرف ..

وطن: شام؟ أخبريني عنكِ ..

شام: ألم أخبركَ عن أبي من قبل ؟

وطن: بلى، لكنني أريدُ أن أسمعَ منكِ من جديد، أريد أن أعرف كل شيء ..

بدأت شام بالحديثِ عن نفسها وعائلتها، أخذهما الحديث لساعةٍ متأخرةٍ من الليل..

وطوالَ هذه الساعات، بقيت شام تتحدث، ووطن يتأملُ ملامحها، وردّات فعلها حين تتكلمُ عن شيءٍ محزن أو العكس، كيفَ تبتسم، وكم مرة ترمشُ بالدقيقة، وكيف ترفعُ خصلاتِ شعرها عن وجهها، ولون عينيها، وعدد شاماتها، ومكان كلُّ شامةٍ منهن، ومتى تتوقف عن الحديث لتتنهد ومن ثمَّ تكمل حديثها، حتى ذلكَ الأثر الذي كانَ يستقرُ في رسغِ يدها اليمنى جرّاءَ حادثٍ صغير حدثَ وهي صغيرة، إثرَ وقوعها وهي تركضُ خلفَ أخيها علي وهما يلعبانِ سويًا..

كان بكاملِ تركيزهِ معها، حين سمعا أذان الفجر، طلبت شام الإذنَ لتتركَ وطن؛ ليرتاح، تمددَ وطن في سريرهِ للنوم، وذهبت شام للنوم في غرفةِ الممرضات، فالعملُ ينتظرها في الصباح..

عروة، هل عندما نكون بكاملِ تركيزنا مع شخص معين، يكون هذا التركيز من باب حبنا للتأمل في ملامحِ هذا الشخصِ تحديدًا؟ أم أن تركيزنا يُدرجُ تحت ما يسمى بقوةِ الملاحظة والانتباه، لا أكثر ولا أقل !! وهل تقاسُ درجة تركيزنا بأهميةِ الشخصِ الذي يتحدث؟

النقاشُ ينتهي دائمًا بطريقةٍ سيئةٍ حينَ تُفتحُ سيرة وطن من قِبَلِ العائلة أمامَ محمد، وفي كل مرةٍ أيضًا يقفُ الجميعُ في صفِّ وطن، لكن الذي لا يمكنُ تصوره هو الذي حدثَ فجأةً حينَ رجعَ " الذئب " مرةً أخرى لزيارةِ محمد في مكتبه، لكنَ زيارته هذه المرة كانت مختلفةً تمامًا، وهو يحملُ قائمةً تحتوي أسماءَ صحفيين كانوا قد نشروا أخبارًا عن عملياتِ نصبٍ وخراب قام بفعلها أشخاص لا يمثّلونَ إلّا أنفسهم، استغلوا مناصبهم في أمورٍ غير قانونية، تتبرأ منهم الدولة والأشخاصُ الشُرفاء بإخلاصهم في عملهم، وحفاظهم على أمنِ البلاد..

تمثَّلت الصدمة على وجهِ محمد حينَ قرأ اسم وطن من بينِ الأسماءِ المكتوبة في الورقة، حاولَ تجاهل اسمه، وفي نفسِ الوقت حاولَ أن يوصلَ فكرة بطريقة منمقة للذئب أن هناكَ أسماء لا أهميةَ لها ومن ضمنها اسم وطن، وسبب تجاهلهِ لاسمِ أخيهِ ومحاولة إقناعِ الذئب بأنه من الأسماء الغير مهمة؛ كان فقط خوفًا من تأثيرِ هذا الموضوعِ على منصبه، أو أن يُعرض نفسهُ للمساءلةِ أمام والديه على الأقل وإظهارهِ بصورةِ الأناني، الذي لا يعرفُ للأُخوةِ معنى ..

تمَّ تخريجُ زيد وزين من المشفى، شعر وطن أنه يفتقدُ صوت لعبهما والضحكات، وأنَّ الغرفةَ مهجورة بغيابهما..

بدأ بالتحسن، وأصبحَ قادرًا على المشي بطريقةٍ أفضل بعد شفاء جروحهِ بشكل شبه تام، في إحدى الليالي ذهبت إليهِ شام للحديث معهُ عن وضعهِ الصحي، لمعرفةِ متى يمكنه أن يخرج من المشفى...

شام: مساءُ الخير ..

وطن: مساءُ الخير .

شام: كيفَ حالك ؟!

وطن: بخير، أستطيعُ المشي بشكلٍ جيد لكن هناكَ نوبات ألم بسيطة لا تتجاوز الدقيقة..

شام: هذا الشيء طبيعيّ جدًا، مع مرورِ الوقت ستتحسن أكثر إن شاء الله ..

التفتَتْ شام لسريرِ الطفلين قائلة: تبدو الغرفة هادئة نوعًا ما بخروجهما ..

وطن: بل مهجورة، كانَ صوتهما يملأ الغرفةَ بهجة ..

ضحكت شام قائلةً: صحيح

ومشت باتجاهِ سريرِ الصغيرين، وحاولت الجلوس عليه، لكن عندما جلست كانت هناكَ قطعة حديد بارزة في السرير غُرِزَت في يدِها، فصرخت فجأةً وأمسكت يدها.

فنهضَ وطن مسرعًا وأمسكَ بيدها بين يديه وقال لها: أأنتِ بخيرٍ يا شام ؟!

شام: أجل، بخير لكن هذه القطعة البارزة غُرِزت في يدي..

اختفت المسافات بينهما، فلا مجالَ لمرورِ الهواءِ بينهما حتى، رفعت شام رأسها تنظرُ لوطن، فتلاقت الأعين، وهو لا يزال يحتضن يدها بين يديه، نظرتهما بقيت لدقيقةٍ ربما، كأنَّ شيئًا غريبًا قد حدث، جعلهما ينظرانِ هكذا لبعضهما..

بعد مرورِ الدقيقة تداركت شام الوضع، وقالت: أنا..... أنا بخيرٍ، لا، لا تقلق..

كانَ الارتباك واضحًا جدًا في طريقةِ نطقها للكلماتِ، والتأتأة التي احتلت لسانها فجأة، سحبتْ يدها من يد وطن وخرجت من الغرفة مسرعة، فبقي وطن في مكانه لم يحرك ساكناً، يحاولُ استيعابَ ما حدث...

عروة، المواقفُ التي تحدثُ بين اثنين إمّا أن تتركَ مجالًا للإعجابِ بينهما على أقلِ تقدير، أو أن تُشعِلَ لهيب الحبِّ بينهما، لقاءُ العيونِ أمرٌ صعب لا يقدرُ عليهِ أحد، أتعلم أنهُ أصعبُ اختبار يمكن أن نخوضه ...؟!

فكم من نظراتٍ أوصلت مشاعرَ كره وحقد، وأُخرى كان سببها الإعجاب أو رُبَّما حب وعشق ...

العيونُ نواطقُ يا عروة، نواطق ...

وصلتْ شام غرفةَ الممرضات، وصوتُ دقاتِ قلبها يُسمع من شدّته، بسبب أنوثتها التي أُثيرت بطريقةٍ عفوية جدًا، وعلى بعدِ

أمتارٍ فقط يجلسُ وطن في سريرهِ يحاولُ استيعابَ ما حدث، ولِمَ تلاقت العيون بهذهِ الطريقةِ العذبة ... ؟!

لا يوجدُ إجابة مُقنعة ..

ذهبتْ شام في صباحِ اليومِ التالي لغرفةِ وطن، فالتقت والديهِ وأخاه إسلام، ألقت التحية، ودخلت، سألتْ أم محمد عن حالها، فأخذها الحديثُ معها لبضعِ دقائق، كانَ وطن ينظرُ لشام نظرات غريبة وهي تتحدثُ مع أمه، وكأنهُ يحاولُ استراقَ النظرِ ليُبحرَ في وجهها أكثر، وشام كانت تُبعِدُ عينيها عنه، إلى أن سألته عن حالهِ وأجابها أنهُ بخير...

أخبرتهُ شام، أنه يمكنهُ الخروجُ من المشفى بعد ساعتينِ بالضبط من موعدِ مجيئها له، واستأذنت بالخروج وقالت أنها ستأتي لاستكمالِ أوراق الخروج بعد ساعتين ..

كانَت أجواءُ الفرحِ تملأ بيت وطن، فكانت كل واحدة من أخواتهِ قد حضَّرت له ما يحبُّ من الطعام، ينتظرنَ فقط دخولهُ مع والديهِ وإسلام ...

حضّرَ وطن نفسهُ للرجوعِ للبيت، رجعت شام بعد ساعتين بالضبط لتوقّع على أوراقِ الخروج وتودّع وطن وأهله ..

قاطعها وطن قائلاً: أيمكنني أخذُ رقمَ هاتفكِ للاتصالِ بك في حالِ حدوث أيِّ طارئ ؟!

شعرت شام بالإحراج أمامَ والديهِ وأخيه، سكتت لثوانٍ ومن ثم قالت: نعم يمكنكَ ذلك، ناولها وطن هاتفهُ بعد أن أخذه من إسلام، وكتبت رقم هاتفها، وودعتهم جميعاً قبل العودة لعملها ...

عروة: أودُّ إخبارك بشيء ما، عندما يكون الإنسان قد قضى سنوات وحده دون أحد معه، وأخذَتهُ الحياة بين طيّاتِ روتينها المُعتاد، والعمل الدائم حتى ظنَّ أنه سيبقى دائمًا وحيداً، أو أنَّ قلبه قد تجمَّد، فيُقنع نفسه أنه لا يشعر، لكن فجأة يتحرك بداخله شيءٌ ما يدفعه للحب، حينَ يظهرُ في حياته إنسان آخر يقدر على تحريكِ ما تجمّدَ داخله من مشاعر..

بدأ وطن إجازتهُ المَرَضية لمدةِ أسبوع قبل الرجوع لعمله، فقد تحسنَّ بشكل تام..

وصلَ بيته برفقةِ أبويهِ وأخيهِ إسلام، فاستقبلهُ الجميعُ برفقةِ الصغار، واجتمعوا سويًا على مائدةِ الغداء، ومن ثمَّ دخل وطن لغرفتهِ ليرتاح، الغريب في الأمر أنَّ أول شخص زارَ أفكار وطن هو شام، والموقف الذي حدثَ بينهما، مرّت نصف ساعة، بقي يتقلبُ في فراشهِ، فلم يجد نفسهُ إلّا أن أمسكَ هاتفه واتصلَ بشام ..

شام: آلو .

وطن: كيفَ حالكِ يا شام؟ أنا وطن ..

سكتت شام لثوانٍ ومن ثمَّ قالت: أهلًا وطن، أهناكَ أمرٌ ما؟ أأنتَ بخير ؟

وطن: أنا بخيرٍ يا شام، لا تقلقي، فقط اتصلتُ لأشكركِ على تعبكِ معي ..

شام: إنهُ واجبي يا وطن، الحمدلله أنكَ بخير ..

وطن: أعتذر على الإزعاجِ يا شام، سأتركُكِ لتكملي عملكِ ..

شام: حسنًا، انتبه لنفسك. إلى اللقاء ..

أقفلا الهاتف، وكلٌّ منهما مصدومٌ مما يحدث ..

الأمرُ ليسَ بالهيّنِ يا عروة، هذهِ المواقف كالتي حدثت بين شام ووطن، تشعلُ في القلبِ فتيلَ المشاعر، ولو حدثت عن طريقِ الصدفة، تُبقي الإنسان أسير الأفكار التي تتواردُ لذهنهِ بعد انتهاءِ الموقف، أو يصبح خياله خصبًا في إعادةِ تخيلِ ما حدث، وهذا ما حدثَ معهما، بالإضافة إلى المرّات التي جلسا فيها سويًا للتحدث، أيضًا كانَ لها دورٌ كبير في لفتِ انتباهِ وطن لشام، وحديثُ أهلهِ عنها، وأيضًا رؤيتهِ لتصرفاتها مع المرضى وغيرها من التصرفات ..

لم يستطع محمد بعد محاولاتٍ عدّة في حذفِ اسمِ وطن من القائمة السوداء كما تسمى، فالعمل بينه وبين تلكَ الجماعات يجبُ الحيادُ فيه، ظهرَ محمد كالمستضعفِ أمامهم، فإمّا أن يساعدهم في إلقاء القبض على الأسماء المكتوبة، أو يبقى جانبًا ويطلبونَ مساعدتهُ إن احتاجوا له فيما بعد، فكانَ المخطط أن يتمَ إلقاء القبضِ على الصحفيين وأخذهم لمكانٍ بعيد ليقوموا باستجوابِهم ومن ثمَّ تسليمهم لأحدِ المراكزِ الأمنية بعدَ تلفيقِ تهمةٍ لهم، وكل هذا سيتم عن طريقِ محمد، ليتمَّ الأمرُ بسريةٍ تامة وبشكلٍ قانوني كما يعتقدون ..

وبدأت حملاتُ المراقبةِ لكلِّ صحفيٍّ على حِدا، بقي محمد صامتًا لا يقدرُ على إعطاءِ رأيهِ حتى..

ظنَّ وطن أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام، لكنه لم يكن يدري أن الذي ينتظرهُ أعظمَ من الحربِ بكثير، فهذهِ الجماعات لا تعرفُ الرحمة، ومن جهة أخرى أخوهُ الذي لم يحرّك ساكنًا ...

بعدَ مرورِ أربعةِ أيام منذُ خروج وطن من المشفى كانت أيامهُ روتينية نوعًا ما لكنه كان يتحضّر للعودة للعمل، وبقيت شام سيدة أفكاره، واعتياده على رؤيتها يوميًا كانَ أصعبُ ما في الأمر..

كانَ يفكر في ماهيةِ شعوره، وتفكيره المتواصل بها، هل كانَ نتيجة لاعتيادهِ عليها، أو ربما بسببِ المواقفِ التي حدثت، أو أنه وقعَ في الحب.. !!

لكن الذي اتضّحَ لهُ فيما بعد هو أنه يفكر بها أكثر مع مرور الوقت، بعد مرورِ أربعةِ أيام،أنهت شام دوامها وذهبت للبيت، كانَت أيامًا شاقّة بالنسبةِ لها، فأحياناً لا تنامُ بالشكلِ الجيد، والعملُ بشكلٍ متواصلٍ أيضًا يكونُ مُتعبًا، وصلتْ إلى البيت مشتاقة لوالدتها

وعلي، غيّرت ملابسها وجلست قليلًا معها، ومن ثمَّ دخلت غرفتها لتستريح..

رنَّ هاتفها ، فكانَ وطن ..

شام: آلو .

وطن: مساءُ الخير يا شام .

شام: أهلًا يا وطن، أأنتَ بخير ؟

وطن: نعم بخير، لكنني أريدُ التحدث معكِ قليلًا، إن لم أُزعجكِ.

شام: تفضل يا وطن..

وطن: شام! الذي حدثَ منذ أربعةِ أيام، حدثَ عن طريقِ الصدفة، ومن شدة خوفي نهضتُ مسرعًا تجاهكِ لأرى ما أصابَ يدكِ، لكنني حين اقتربتُ منكِ شعرتُ بشيءٍ غريب، لا أعلمُ ما هو، وأريدكِ أن تعلمي أنهُ بعيد كلّ البُعدِ عن الرغبة، ومنذُ ذاكَ الوقت لم أفكر بأيّ شيء سواكِ ..

شام: وطن، لا أعلم ماذا يجبُ عليَّ أن أقول، لكن يمكنني أن أنبهكَ للمشاعرِ المؤقتةِ التي تأتي مصاحبةً لمواقف معينة ..

وطن: لكن يا شام، الإنسان لديهِ القدرة على تصنيف مشاعره إن كانت لحظية أو العكس، وإن كانت لحظيةً يا شام، لمَ لا أفكرُ بأي شيءٍ آخر سواكِ .. ؟!

ترددتُ كثيرًا قبلَ أن أتصلَ بكِ، موقفًا واحدًا غير كاف ليجعلني أفكر بكِ بهذهِ الصورة، فقد حدثَ أكثر من موقف ..

شام: ماذا تقصد يا وطن ؟

وطن: شام! الموقفينِ اللذين حدثا بيننا كانَ لهما دور أيضًا في تفكيري بكِ، لكنهما ليسا الأساسيين، فأنا بقيتُ أراكِ لمدةِ شهرينِ كاملينِ في المشفى يا شام، اعتدتُ عليكِ، بالإضافة أنني رأيتُ معاملتكِ مع الصغيرين زيد وزين فهما جعلاني أيضًا أحبُ مجيئكِ لغرفتي لأرى ردة فعلكِ حينَ يركضانِ نحوكِ، والمرات التي جلسنا فيها سوياً نتبادل أطراف الحديث.

شام ! شاماتكِ توزعت في خدّكِ الأيسر، وواحدة فوق شفاهكِ، وهناكَ واحدة تختبئ بينَ العظمتينِ نهاية رقبتكِ، والجرحُ الذي يستقرُ في رسغِ يدكِ اليُمنى، وتنهيدتكِ التي تأتي بين الكلام، لتكملي بعدها ما بدأتِ به ..

خيَّمَ الصمتُ على شام، فلم تعد تعرف بماذا ستجيب بعدَ كلِّ هذا..

وطن: شام! أتسمعينني ؟

شام: نعم يا وطن، أسمعك، لكن ماذا عسايَ أن أقول؟

وطن: لا تقولي شيئًا الآن، فكري بكلِّ كلمةٍ قلتها لكِ للتو، وسأعاودُ الإتصالَ بكِ لاحقًا، سأتركُكِ الآن لتستريحي، تصبحينَ على خير ..

شام: إلى اللقاء ...

كانت ليلةً تملؤها الحيرة يا عروة، ما الذي يحدث، أهو حب، أم مشاعر لحظية كما قالت شام ؟

بقيَ وطن مستيقظًا يفكر، بعدَ ثوانٍ معدودة قرر الذهاب في اليوم التالي للمشفى بحجة أنه سيزور الممرض أحمد، لكنَّ السبب الحقيقي لا علاقةَ لهُ أبدًا بشيء إلّا بشام ..

وبقيت شام تفكر، مصدومة مما سمعت ...

ومحمد أيضًا أصابهُ الأرق، فهذهِ أول مرّة في حياته يشعر فيها أنه مستضعف بسبب المال، فكل عملٍ يقومُ بهِ يقبضُ مقابلهُ مبالغَ طائلة، وهذه المرة أيضًا سيقبضُ الكثير لكن مقابل " وطن " ... أخاهُ الذي من المفروضِ أن يقتل أي أحد يقترب منه وليس العكس..

الأخوةُ شعور صعب يا عروة، فإن أصابَ أخي الألم تألمتُ أضعاف ألمه، وإن سقطت من عينهِ دمعة واحدة، هطلت من عينيَّ أنهار من الدموعِ لأجله، وإن فرح لشيءٍ ما ابتسمتُ قبله، وأتحولُ فجأةً لإنسان متوحش لا يعرف للإنسانيةِ معنى إن اقتربَ أحدٌ منه بشيءٍ سيء، فأين محمد من كلِّ هذا ؟؟؟

استيقظت شام في صباحِ اليوم التالي كالعادة للذهاب للعمل، كانَ ينتظرها يوماً حافلاً بالمشاعر ولا تعلم، وصلت كالعادة وسلَّمت على الجميع، وجلست في غرفة الممرضات لتحتسي القهوة مع مروة وبقيةِ زميلاتها، كانَ هُناكَ مريضًا كبيرًا بالسّن يعاني من بعضِ الأمراض ويجبُ مراقبته، كانَ أحمد مسؤولًا عنه، لكن بسببِ اتصال وطن به ليخبرهُ أنهُ يرغبُ بزيارته في المشفى توجه أحمد لغرفةِ الممرضات طالبًا من شام أن تأخذ مكانه إلى أن ينتهي من زيارة وطن له ..

فوافقت شام، وقالت له: سأمرُّ عليكَ يا أحمد حينَ أبدأ عملي لآخذ ملف المريض..

أحمد: حسنًا يا شام بانتظارك ..

توجهَ أحمد لغرفةِ الممرضين، لينتظر وطن هناك..

استيقظ وطن متلهفًا لزيارتهِ لأحمد، لغاية في نفسه، خرجَ من البيتِ مودعًا أبويه، وركبَ سيارته واتجهَ للمشفى ..

كانَ مُراقَبًا لكنه لم ينتبه، بعد قضاءِ ربع ساعة في الطريق أخيرًا وصل للمشفى، اتصل بأحمد، وأخبرهُ أنه يقفُ عند باب المشفى، فخرج أحمد لاستقباله وأخذه إلى الكافيتريا للجلوس معه ..

أنهت شام شرب القهوة مع زميلاتها، واتجهت لغرفةِ الممرضين للسؤالِ عن أحمد، فقالوا لها أنه في الكافيتريا، فاتجهت إلى هناك، رأتهُ يجلس مع شخص ما، فاقتربت قائلةً: مرحبًا ..

نظرَ إليها أحمد مبتسمًا: أهلًا يا شام. في نفسِ الوقتِ التفتَ ذلك الشخص لشام مبستمًا..

انصدمت شام برؤية وطن يجلس على الطاولة برفقةِ أحمد، اتجهت بنظرها لأحمد وقالت: أحمد، أعتذر على المقاطعة، لكنني أريد ملف المريضِ الذي أخبرتني عنه في الصباح ..

أحمد: الآن سأحضره، انتظريني لثوانٍ، سأعودُ على الفور ..

فطلب أحمد الإذن بالذهاب لجلبِ الملف، أدارت شام ظهرها تودُّ اللحاق بأحمد؛ لأخذِ الملف منه..

نادى عليها وطن قائلًا: شام!! شام!! انتظري ..

شام: نعم، تفضل يا وطن .

وطن: أتيتُ إلى هُنا لأراكِ ..

نظرت شام في عينيه متفاجئة مما تسمع .

وطن: نظراتكِ هذه تستفزُ فيَّ عواطفي لاحتضانكِ.

أخفضت رأسها خجلًا، وبدأت تقلّبُ أصابعها بارتباكٍ ملحوظ..

فأنقذها مجيءُ أحمد: شام هذا هوَ الملف، وشكرًا لكِ .

شام: عفوًا يا أحمد..

أخذت الملف وحثَّت أقدامها على المشي بسرعة؛ لتبتعد عن المكانِ الذي يتواجدُ فيهِ وطن ..

شعرت بأنَّ قلبها سيخرجُ مُحلقًا من قفصها الصدري، من شدةِ ارتباكها، والشعورُ الذي استيقظَ داخلها فجأة دونَ سابقِ إنذار، ولكنها لا تعلم ما هو، أكملت عملها بشعور غريب، لا تستطيع تصنيفه قط.

مرَّ شهرٌ كامل بعد ذلك، بقي فيهِ وطن ملتزمًا بزيارتهِ لأحمد كل يوم، وباتصالهِ بشام كل ليلة، حتى عندما عادَ لعمله، كان يذهبُ للمشفى بعد انتهاءِ دوامهِ، شهر كامل تراه فيه شام كل يوم، فاعتادت على رؤيته..

إلى أن غابَ وطن لمدةِ يومينِ بسبب انشغاله، فلم يستطع حتى أن يتصل بشام، شعرت بغيابه، فذهبت لأحمد وهو في غرفة الممرضين.

شام: مرحبًا أحمد، كيف حالك؟

أحمد: أهلًا شام، الحمدلله، كيف حالكِ أنتِ؟

شام: أحمد أودُّ أن أطلب منكَ طلبًا صغيرًا .

أحمد: تفضلي ..

شام: تعاني أمي من وعكةٍ صحية، فيجب أن آخذ إجازة للبقاء بجانبها، أيمكنكَ أن تأخذ مكاني إلى حينِ رجوعي .

أحمد: بالتأكيدِ يا شام، يمكنني ذلك، أتمنى الشفاء العاجل لوالدتكِ .

شام: شكرًا يا أحمد..

اتجهت بعدَ ذلك لبابِ الغرفة، حين وصلت الباب وقفت، انتبه لها أحمد فسألها: ما بكِ يا شام ؟

شام: لا، لكنني أودُّ أن أسألك عن صديقكَ الصحفي، فلم أراهُ اليوم، ما الأمر ؟

أحمد: لا أعرف يا شام، لكنني أعتقدُ أنهُ مشغول، فلم يتصل بي منذ يومين، ما سبب سؤالكِ يا شام؟ أتريدين منهُ شيئًا ؟

ضحكت شام: لا لا يا أحمد، إنني فقط أسأل لأنني اعتدتُ على رؤيتهِ هنا لهذا السبب سألتك، فقط لا غير ..

أحمد: فهمت ماذا تقصدين ..

طلبت شام الإذن من أحمد، وأوصتهُ بما طلبت منه، وخرجت وأتمّت إجراءات الإجازة وتوجهت للبيت للبقاء بجانبِ والدتها بسبب مرضها ..

بعدَ مرورِ ساعةٍ بالضبط دُقَّ باب غرفةُ الممرضين، كان أحمد يحاول أخذ استراحة سريعة قبلَ مواصلةِ عمله..

أحمد: تفضل

أطلَّ وطن: مرحبًا يا أحمد ، كيف حالك؟

وقفَ أحمد للسلام على وطن وسأله: ما سبب غيابكَ ليومينِ يا وطن؟ أهناكَ أمرٌ ما ؟

وطن: لا يا أحمد، كنت مشغولًا ببعضِ الأمور فقط ..

بعد مرور ربع ساعةٍ من الحديث، قاطع وطن أحمد بسؤاله: أينَ الممرضةُ شام يا أحمد؟

أحمد: إنها في إجازة يا وطن، والدتها مريضة، لمَ تسأل عنها ؟

وطن: لا شيء يا أحمد، لكنني اعتدتُ أن أراها في الممرات حينَ آتي إلى هنا، وكانت أيضاً الممرضة المسؤولة عن وضعي الصحي حينَ كنت هنا ..

ضحك أحمد...

وطن باستغراب: لمَ الضحكَ يا أحمد ؟

أحمد: لا لا يا وطن، فقط شام سألت عنكَ أيضًا..

ابتسمَ وطن وقال: لمَ سألت عني ؟

أحمد: لأنها اعتادت على رؤيتكَ أيضًا .. !!!!

خيمَّ الصمتُ على وطن، وبعدَ ثوانٍ معدودة، استأذنَ بالذهاب بحجة أن لديهِ عمل، وسيعود لزيارة أحمد في وقتٍ لاحق.

خرجَ مسرعًا، استقلَّ سيارته، وقام بالاتصال بشام ..

شام: آلو .

وطن: شام! أأنتِ بخير ؟

شام: نعم بخير ..

وطن: لمَ لم تتواجدي في المشفى اليوم؟

شام: ما الذي أدراك أنني لم أكن في المشفى اليوم ؟

وطن: ذهبتُ لرؤية أحمد، ولم أركِ هناك، فسألته عنك ..

شام: أمي مريضة، فقدمت لإجازة لمدةِ يومين .

وطن: حسنًا، انتبهي لنفسك، سأعاودُ الاتصالَ بكِ في وقتٍ لاحق، إلى اللقاء ..

أقفلا الخط، كلٌّ منهما يفكرُ في الآخر، لم يعترف وطن بحبهِ لشام، وهي كذلك، كانَ الشعور يتأجج داخلها لكنها لم تعترف أيضًا، أهو كبرياء منهما أم عدم جرأة على الاعتراف؟

عروة، أتذكر المرات التي كنت تذهب فيها لزيارة صديقكَ أحمد وزوجته؟ في كلِّ مرةٍ تكونُ هناء هناك وتقومُ بفتحِ البابِ لك.

أتذكر حينَ سألتَها: هل وضعوكِ لفتحِ الباب فقط ؟، فقابلتكَ بابتسامة، ثمَّ دخلتَ بعد ذلك .

أتذكر أيضاً حينَ قمتَ بزيارة أحمد وزوجته، ولم ترى هناء هناك ؟ فسألتَ عنها بطريقةٍ لطيفة قائلاً: أين الفتاةُ الحلوة التي اسمها هناء؟

وبعد مدة قصيرة، سألتْ عنكَ بطريقة منمقةٍ لكي لا يُكشفَ أمرها بقولها لـ ليلى " زوجة أحمد ": أين الضيوف ؟

فقابلتها ليلى بسؤال: لمَ تسألين عن الضيوف؟ فحاولت هناء أن توضحَ لـ ليلى أنها تسأل بطريقة عادية جدًا ..

ألم تفتقدا بعضكما حينها يا عروة ؟

كم يبدو الأمرُ جميلًا يا عروة، حينَ تبدأ الأسئلة والتلميحات قبل الاعتراف، والأجمل حين يكون الطرفان يفهمانِ بعضهما لكن كلٌّ واحد منهما ينتظرُ اعترافَ الآخر ..

الحبُّ تمكّنَ من وطن، وتمكّن من شام أيضًا، لكن لا قدرةَ لهما على الاعتراف، كأنَّ كلُّ واحدٍ منهما ينتظرُ خطوةً من الآخر ليوفرَّ عليهِ عناء الطريق ..

شعرَ وطن أن لا قدرة له على السكوت أكثر بعد مرور ثلاثة أشهر من الكلامِ الممقِ، وصراحة في بعضِ الأحيان وكثيرٌ من المشاعرِ المختلفة، فقرّر أن يعترف لشام بكل ما يشعر..

مرَّ اليوم الأول من إجازةِ شام، وبدأت أمها بالتحسن، أرادت النومَ في أحضانها قبل أن تذهبَ إلى عملها في اليوم التالي، فقامت لتحضِر لأمها الدواء والماء، حينَ وصلت باب الغرفة سمعت والدتها

تقول لها: إن الله سيرزقكِ إنسانًا يحبكِ بصدق؛ بسبب قلبكِ الطيب يا ابنتي، فالتفتت لها شام مبتسمةً، وقالت: أحبكِ يا أمي .

ابتسمت شام حينها بسبب لطافةِ كلماتِ والدتها، وتذكرت وطن أيضًا، أحضرت الماء والدواء سريعًا، وركضت لأحضانِ أمها؛ لتنام.

عروة، أتعلم أن كلامَ أمهاتنا لا يُقال عَبَثاً، بل كلُّ كلمةٍ وراءها الكثير من الشعور، أتشعرُ أمهاتنا بنا إلى هذا الحدِّ يا عروة ؟؟

في صباحِ اليوم التالي، اتصلَ وطن بشام ليطمئنَّ على والدتها، وعرفَ أنها ذاهبة للعمل، فقال له قلبه: هذا يومك، لا تنتظر أكثر

مرَّ اليومُ بشكلٍ طبيعيٍّ جدًا على الأقل إلى أن حلَّ المساء، جُنَّ وطن، واستقلَّ سيارته واتجهَ للمشفى، شعرَ أن هناكَ سيارة تُراقبه، ومع ذلك أكمل طريقه، وعندما وصل اتصل بشام.

شام: آلو.

وطن: شام أين أنتِ ؟

شام: إنني في المشفى يا وطن، ماذا هناك؟

وطن: إنني في الخارج، بانتظارك .

شام: لماذا ؟ لم أفهم !!

وطن: اخرجي الآن وستفهمين كلَّ شيء، أنا بانتظاركِ في الخارج، تعالي .. وأقفلَ الخط دون أن يقول وداعًا .

خرجت شام مسرعةً، لترى ماذا يريدُ منها وطن، وما الذي جاء به!

كان يقفُ بجانبِ سيارته، يبدو منتشيًا بتلك العيون ويفكر، لتقطع تفكيره صاحبة تلك العيون، قائلةً: ماذا بكَ يا وطن، لمَ أتيتَ إلى هنا ؟؟

فابتسمَ ابتسامةً وكأنهُ رأى حوريةً سقطت من الجنة.

شام" مرةً أُخرى ": ماذا بكَ يا وطن ؟!

لم يرد عليها، كان يسكنُ عالمًا آخراً ازدادَ بهجة حينَ وصلت له وسمعَ صوتها.

سألته للمرةِ الثالثة : وطن لم تُجبني، لمَ أتيتَ إلى هنا ؟!

أجابها: لأولِ مرةٍ أرىٰ عينينِ ملفتتينِ للحد الذي يجعلني أضيّعُ الحروف والكلمات، وتتطايرُ من أمامي جميع ما تملكهُ ملامحي من ردّات فعل لأُنقذ نفسي بتنهيدة بدلاً من إلقاءِ التحيّة ...

هنا بدأ الحبُّ يا عروة، العيون لا تكذب قط، وعيون وطن صرَّحتْ بما في داخلهِ بشكلٍ منمقٍ كبداية على أقل تقدير...

فما كان من شام إلّا أن تفاجأت مما سمعت...

وهو ما زالَ ينظرُ في عينيها بشغف وكأنهُ رأى معجزة من معجزاتِ الله على الأرض، وبعد مرورِ دقيقتينِ من الصمت، قام وطن باحتضانِ وجهها بيديه، واقتربَ منها أكثر، قائلًا: أنتِ شامي، أحبكِ ..

تنظر شام له باستغراب وخجل، وتوتر وارتباك وسعادة، كل ذلك في آنٍ واحد، كانَ وطن يرى كل ذلكَ في عينيها، وأصرَّ على قولِ " أحبكِ " لها، أكثر من مرة، ومن ثمَّ قامَ بتقبيلِ كفِّ يدها اليُمنى، وقال وهو ينظرُ في عينيها: كنتُ أنتظرُ زيارتكِ لي كلَّ صباح، وأنتظر رؤية ردَّة فعلكِ حين يحتضنكِ زيد وزين، ولم أكن

أعلم أنها بداية الحبِّ داخلي، ولم أفكر بطريقةٍ عميقةٍ في ماهية شعوري..

لكنني الآن، أقولها لكِ: أحبك شامي، أحبكِ ..

خيَّمَ الصمتُ عليهما لدقيقتين، أشعلَ وطن سيجارة، وبدأ يُدخنُ بسرعة، وشام تنظرُ إليه بتركيزٍ واستغراب، أكملَ قائلًا والسيجارةُ بينَ شفتيه: كنتُ أتذكرُ ضحكتكِ وأُحادثُ نفسي قائلًا: الأمر أشبهُ بِمن يزورُ بيتَ الله الحرامِ بعد صبر مُهلك لروحه، وأذِنَ الله له بزيارة بيته، فحينَ دخل أرضَ الحرم شعرَ بأنه قادر على ضمِّ حجارة المكان وكل ما يحتويه بين يديه من شدّة الفرح، لكن يديه لا تتسعان لِضَمِّ كل تلك الأشياء..

وأنَّ تلك العيون البنية التي تتجلى فيها معاني الجمال والفتنة تبدو كأسطورة تمثلُّ لون الغروب في يومٍ ممطرٍ لا مثيل له، حدثًا مُهمًا، مقطوعة طويلة تَطيبُ لها المسامع، نقشًا تاريخيًا لا تمحوهُ السنين، فنجان قهوة يُصنَعُ بِحُب، وردًا بنفسجيًا ينتشي برائحته المارّة، وتفرح برؤيته العيون، طريقًا يُوصل للبحر، حلمًا جميلًا لأحدهم،

دعوة تُدَسُّ أسماء الأحبّاء داخلها بكُلِّ حب، عيون يليقُ بها كلُّ الجمال ...

وعندما رأيتكِ تصرخين في وجهِ الصحفيين كما فعلتِ معي في لقائنا الأول، أول فكرةٍ تواردت لذهني: هي كيف يمكنُ لملاكٍ بشريٍّ أن يكون بهذهِ القوة وهذا الصمود.. ؟

للوهلةِ الأولى بدتْ شام وكأنها لا تعي ما الذي يحدثُ حولها، فقد كانت تسكن في عالم تسكنه حروفُ وطن، وابتسامته وطريقةُ اعترافهِ بما يشعر...

أيمكنُ أن يجتمعا معًا كما اجتمعتما أنت وهناء يا عروة ؟!

ونجتمعُ أنا ورجلي كذلك!!

عروة! كم يبدو الحبُّ جميلًا لا مثيلَ له، كم يبدو معذّباً للقلوب !

كم يبدو الشعور مُذهلًا يا عروة، أن تكون الأنثى من معشرنا في موقف شام، كم يبدو الأمرُ مُرضيًا لأنوثتها وقلبها، أن يبادر رجلٌ منكم باعترافهِ بأسمى شعور يمكن أن يعيشه الإنسان...

عروة، إنني وشام إناثُ التفاصيلِ كهناء تمامًا، أعرفُ أنكَ تحبها حتى بعد موتها، وأن تفاصيلُ أنوثتها ما زالت عالقةً في ذهنك بالرغمِ من خيانتكَ لها، أودُّ أن أخبركَ أنني قمتُ بمراسلتها، وأخبرتها ببعض الأمور، أخبرتها عن شعور كل امرأةٍ منّا تعرضت للخذلان إن كان بسبب الظروفِ أو بسبب رجل ...

إليكَ نص رسالتي لها :

لشبيهتي الخيالية هناء ..

أأنتِ حمامة الأيكِ أم غصةُ العمر كما قال عروة ؟

أأنتِ كسرة الخاطر التي لا يجبرها ألف اعتذار؟

أأنتِ التي احتملت الخيانة من الرجل الذي كانت تأمنهُ على قلبها؟

هناء ؟!

أنتِ هي هناء التي لا هناءَ بعدها؟، رحلتِ ولم يبقَ له سوى الذكريات .

أود إخبارِكِ بكثيرٍ من الأمور التي استنفذتني، أرجوكِ أريدُ منكِ فقط أن تنصتي لي، هذا ما أحتاجهُ الآن ..

في بداية الأمر كنتُ أود معرفة إن كانت الأنثى تستطيع إكمال علاقة هي الخاسر الأكبر فيها !!

فقد تعبتُ يا هناء ولم يعد بمقدوري أن أحتمل أكثر، وبالرغم من هذا بقيتُ على ما بدأتُ به محاولةً تجاهل الكم الهائل من الندوب التي حُفِرت على جدار قلبي، ودموعي التي لم تجف إلى الآن، وكارثتي الكُبرى هي أنَّ ذاكرتي قوية جدًا فلا مجالَ للنسيانِ لديّ، فأنا أتذكر كل التجارب والمواقف السيئة التي مرّت بي.

تفاصيل الألم التهمت روحي فلم يبقَ منها شيئًا .

هناء..

أقسم أنني نضجتُ بطريقة مؤلمة، كبرت قبل أواني بسبب خذلانٍ تعاقبت من بعدهِ الآلام.

هناء !! كيف يمكن لامرأةٍ منّا أن تحب بكل ما فيها، وتصل مرحلة حبها للألم اللذيذ ممن تحب، والكلمات الجارحة التي تضعُ لها ألف اعتذار وتبرير بينها وبين نفسها.

كيف يمكن لامرأةٍ منّا أن تكون هشّة لدرجة أن كلمة ترفعها للسمّاء وأخرى ترمي بها إلى القاع.

كم تبدو هذه الهشاشةُ مؤلمة يا هناء، بعد أن أصبحتُ كورقة يمكن لـ نسمة هواء أن تحملها بعيدًا، عرفت كيف يمكن للضعف أن يتمكن منّا.

هناء ..

كان من الممكنِ أن ألجأ لشخصيةٍ من واقعي تُحاكيني، لكنني لا أرغبُ بهذا، أنا الآن مُرتاحة بتوجيه رسائلي لكِ ولعروة، أن أُقيم محادثة خيالية بيننا كل ليلة؛ فأقوم بالبوح لكما عن كل ما يدور في دواخلي دون خوفٍ أو تردد، فأكتب وأكتب عبر نظرات حارقة يتسع مداها شاشة حاسوبي، وكلمات مرتبكة عالقة في حنجرتي، حتى أعود لواقعي جامدة، كاذبة بابتسامتي، ومرتدية قناعي أمام

الجميع، لهذا السبب أشكو لكِ ولعروة، فأرجوكِ سامحيني إن كنتُ سبب إزعاجٍ لكِ ..

سأعاودُ مراسلتكِ في أقرب وقت ... !

هذا نص رسالتي لهناء يا عروة، سأبعثُ لها برسالةٍ أخرى فيما بعد، فلكلٍّ منكما أحاديث لا تُحكى إلّا له ..

وأنتَ يا عُروة :

كم من الوقت استغرقتَ لتحب هناء بطريقةٍ جنونية ؟

وكم من الوقتِ استغرقتَ لتكتشفَ أنها الأولى في قلبكَ والأخيرة ولن يأتي أحدٌ بعدها ..

وكم من الوقت استغرقتَ لتجمع قواكَ وجرأتكَ لتخون قلبها.. ؟

هناك أمورٌ مشتركة بيني وبين هناء وشام يا عروة، فقد تحملت كل واحدة منّا ما لا يُحتمل ..

بعدَ مرورِ ساعة كاملة من وقوفِ شام ووطن سويًا، طلبت شام من وطن، أن يعود للبيت وينتبه لنفسه، فأخبرها أن هناك سيارة

تراقبه، فسألته شام عن سبب المراقبة، فلم يجد إجابة للسؤال؛ لأنه أيضًا لا يعرفُ سبب المراقبة، ومن الذي يراقبه .. وعادت هي للمشفى، لإكمالِ عملها ..

أصبحَ صاحب العيونِ البنية يشغل تفكيرها، فأصبحت ترى ملامحهُ في الأوراق وعلى جدران ممرات المشفى، فباختراعهِ لأبجديةٍ جديدةٍ للتعبير عن حبه لها امتلكَ قلبها، فقد انتبه جدًا لتفاصيلها، واكتشف أنها دراميّة جدّاً، وتأثرها بالأشياء لم يكُن طبيعيّاً، وحساسيّتها مفرطة، ولم يمر أمامها حَدَث إلّا وبقيَ في ذهنها...

فقد كانت شام عبارة عن مشاعر فائضة، أو رُبّما كانت تراكمات لأشياء حدثت حولها وبقيت كندوب تحتل جدار قلبها، وإن حاولت أن تكون قاسية يلين قلبها لصوت طفل صغير ..

وصل وطن للبيت، ودخل لينام كالعادة ليصحو باكرًا من أجلِ العمل، لأول مرة ينام وهو يريد أن يأتي الصباح بسرعة البرق؛ ليرى شام، كانت ليلةً مليئةً بنسماتِ العشق.. فكلٌّ منهما نام مطمئنَّ القلب، ينتظرانِ الصباح على أحرٍّ من الجمر ليلتقيا ..

لهفةُ الحُبِّ لا مثيلَ لها يا عروة، فكم هو جميل أن تنام منتظرًا الصباحَ؛ لترى من تحب أو تسمعَ صوته، وأن تحثَّ قدميكَ بسرعةٍ حينَ تذهبُ لرؤيته، وأن تشعرَ أن الوقت توقَّف وأنت بينَ يديه، وكثيرًا من الأمور التي تُشعل في القلب براكينًا من العشق الذي لا ينتهي..

في صباحِ اليوم التالي، استيقظا بسعادة ونشاط، ذهبَ كلٌّ منهما إلى عمله، وما بينَ الساعة والأخرى كان يرنُّ هاتف شام، تفتحُ الخطَّ ليقابلها وطن بكلمة واحدة: أحبكِ شامي، ويقفلا الخط ليكمِلا عملهما ..

وفي نفس الوقت لم تنتهي محاولات محمد بمحوِ اسمَ وطن من القائمة، لكن عبثًا يحاول، أصبحَ الأمر واقعًا ولا مهربَ منه، وهو لا يعرف ماذا سيفعل، يشعرُ أن يديه مبتورتين، وأنه ضعيفٌ ذَليل..

حلَّ المساء، وكلٌّ منهم مشغول في قصته، لكنَّ شام ووطن مشغولانِ ببعضهما..

كانت الساعة السابعة، حانَ موعد رجوع شام للبيت، اتصل بها وطن، فأخبرتهُ أنها ذاهبة للبيت، فطلبَ منها أن تنتظره، ليوصلها هو، فوافقت ..

بعد مرورِ ربع ساعة، اتصل بها لتلاقيهِ عند باب المشفى..

حينَ صعدت للسيارة، قابلها بكلمة: أحبكِ شامي، فابتسمت له وأمسكت بيدهِ بقوة لا مثيلَ لها، وكأنها تحتمي به من كل شيء في هذه الدنيا..

أخذها لإحدى حارات الشام القديمة، كانَ الجوُّ باردًا جدًا، فطلبَ منها النزول من السيارة ليمشِيا سويًا، وهذا ما حدث، بدأ وطن بالحديث..

سألها: من أنتِ يا شام ؟

فقالت : أنا ابنة الوطن يا وطن، ابنة حارات الشام القديمة، وأنثى التفاصيل، لا أفهم إلّا لغة الحب التي ترويها فيروز كل صباح بالرغم من سكاكينِ الحرب التي تتوغلُ كل يومٍ في جسد سوريا، أحب الجلوس على الرصيف، أحب المشي على الأقدام ولا أحبذ

ركوب السيارة، أعشق المطر، وأكره الصيف، أرى نفسي بين حروف غسان كنفاني وغادة السّمان، أرى الحب من منظوري الذي يتلخص بالتمسكِ والوفاء والتجاوز، أنا ابنة المواقف يا وطن، ابنة تلك المرأة الطيبة التي علّمتني قيمة الأشياء، مهما أخذتُ القليل أُعطي الضعف، ومهما جُعتُ أبدو وكأنني أكلتُ طعام الكوكب كله، ومهما نقصت الأشياء في عيني امتلأتُ بها اكتفاءً وحبًا.. ومهما كنتُ تعيسة أبدو وكأن سعادة أهل الأرض أجمعين وِضعَت في قلبي، فإن مشيتُ في طريقٍ مُظلم بسبب دخانِ القذائف، أمشي وأنا مبتسمة أوزعُ الأحلام والأمنيات والضحكات هنا وهناك في قلوب الأطفالِ والأمهات، وفيَّ من العناد ما يجعلك تفكر أنني صخرةً لا يستطيعُ أحدٌ تحريكها مهما بلغت قوته، وأنني درامية بعض الشيء، أحزنُ بسرعةٍ وأفرحُ بسرعة، وأحلامي ليس لها سقف .. أنا ابنة ذاك الفقير لله، الذي كان يقسم لنا رغيف الخبز من فرحه وهو يبتسم لنا، ويظل هو غارقٌ في أحزانه غير مُبالٍ بها مقابل سعادتنا، وقلبي يميلُ للفقراء يا وطن، للخبزِ الجاف، للبيوت المهترئة، لكرة القدم في الحارات القديمة، لابتسامة الأمهات حين يصنعنَ لأطفالهن طعامًا لذيذًا غير معتادٍ بالنسبة لهم ... أنا الشام يا وطن....

عروة أيعقل أن نخبر نحن بنات حوا جنس آدم بعيوبنا دون تغيير رأيهم بنا، أو حتى هروبهم منا ؟! أفكر كثيرًا في هذا الأمر، لأنني مليئة بالعيوب... عروة أجبني أرجوك، هل سيغير فكرته عني إن علم أني طفلة ؟! وأني لستُ كما يبدو علي صامدة، ومُواجِهة، وأنَّ دموعي قريبة جداً، وأنّني أُعاني من حساسية مُفرطة، وأتعمد أحياناً أنّ أدَّعي الحزن كنوعٍ من الحركات الطفولية لأكسب اهتمام من أحبهم، وأنَّ خيالي واسعٌ جداً، وأنني دوماً في مُخيّلتي أحادثُ نفسي، أو أجد شخصية أحادثها، ولا أرى الأمر جنونيّ أبداً، بل إنني أحياناً أبكي إن جال في خيالي أمرٌ مُحزِن..

هل سيغير فكرته عني إن علم أنني لا أرتدي كل ما هو على الموضة، بل أرتدي ما يليق بي ولا تهمني رؤيتهم لي... وأنني دائمةُ التفكير في النهاياتِ عند أول خطوةٍ من البداية، وأنني أبدأ يومي بشربِ كوبين من الماء الساخن قبل أي شيء وأنها أصبحت عادة، وأن أسناني الأماميات يشبهن سِنان " شخصية كرتونية "، وأنني قبل أن أنام بثوانٍ أضعُ العطر، وأُسرّحُ شعري ! ولا أعلم سبب الأمر، وأنني رومانسية بطريقة مفرطة، وأنني ملكة الدراما ولا أتجاوز الأمور بسهولة، ويبكيني موقف بسيط بين عشاق في فيلم، وأرتدي الجوارب دائمًا غير متشابهة، وأحب التجربة جداً ما دامت النتائجُ لن تؤذي أحداً سواي، وأنني مزاجيةٌ جداً وهشّة

لدرجة أن كلمة تبكيني وكلمة تُفرحني، وعصبية جدًا لدرجة أنني يمكن أن أسبب الأذىٰ لنفسي، وأنني لستُ قاسية، لكنني عنيدة، ولا أُطيقُ صيغة الأمر أبدًا، وأُصابُ بالقلق عند حدوث أي شيء مفرح، وأؤمن بصلة الروح أكثر من الدم، وأن عينيَّ تفضحاني دائمًا، وأنني امرأةُ الهروب الأولى، وأنني أثور فجأة، وأهدأ فجأة .. هل سيغير فكرته عني ؟! هل سيبتعد ....؟! إن علم أنني طفلة جداً ، سيئة جدًا، ولستُ ملائكية أبداً، ولستُ قدّيسة، وأنّ لي قلبٌ طاغٍ على العقل، هل سيحبني كما أنا ؟!

كل ذلكَ وأكثر يا عروة، إنني كومةٌ من أتراحٍ وأفراح، أمنيات ضائعة، ودموع ما زالت عالقة في جفوني، إنني سيئة بقدر ادعائهم للنبوّة، في ظلِّ أن كلٌّ منهم يمتلك من الوجوه ما لا يعدُّ ولا يحصى، وأعترفُ في ذات الوقتِ أنني ليومٍ من الأيام كنتُ لا أُطاق بطريقة مقرفة، وأنني كنت المستغنية في الأوقاتِ التي كانت تتطلبُ منّي البقاء، وأنني جرحتُ غيري، لكن والله لم أكن يومًا شيطانًا يعبثُ في الأرواح وفي حياةِ الآخرين للسعي إلى خرابها .. إنني بيسان يا عروة، بيسان ..

بعد مرور ساعة من المشي، بدأت قطرات المطرِ بالهطول ..

يا ترى أيُّ وطنٍ هذا الذي استقر بين أضلع وطن ؟!

فشام عاجزة عن وصفِ سعادتها، ووطن لم ينتظر أبدًا؛ لتستعيد توازنها وتنتظمَّ دقات قلبها، وتقفُ بشموخ من جديد، بعد سماعها لكلمة: أحبكِ، منه ..

في كل مرةٍ يزلزلها ويدهشها بطريقة ما بكلمته تلك، بعد صراع بين قلبيهما: من يُحب الآخر أكثر ؟!

فلم تكن تعلم أن الصراع هذهِ المرة سينتهي بوقوعها في وطنٍ يملؤه الأمان الذي لطالما كانت تنشده ...

أصبحت الساعة الثامنة، والجو يزداد برودة .

كانا يمشيانِ في طريقٍ مظلمٍ لا يُسمع فيهِ إلا صوتُ قطرات المطر وهي تطرق النوافذ بكل قوة، وكأنها تريدُ إيقاظَ القلوب؛ لتُشعل فتيل الحبِّ داخلها ..

أوقفها وطن فجأةً : أتحبينني ؟!

شام: أما زلتَ تسألني هذا السؤال بعد كلّ الذي رأيته في عينيَّ من عشق تلكَ الليلة حين اعترفتَ لي ؟!

وطن: عرفتُ أن هذا ردّكِ، لكنني أريد سماعها منك

شام: أحبك ...

وطن: وأنآ أحبكِ ....

ومضيا سويًا وهو ممسكٌ بيدها، إلى أن وصلا إلى أحدِ الزُقاق، كان مُظلمًا وفي نفسِ الوقت ينبعثُ ضوء من إحدىٰ الزوايا فوقفا بجانبه، قاصدين الاحتماء من المطر .

نظرَ إليها قائلًا: هل تَشعُرينَ بالـ.....

لم يكمل جملته، بل بقيَ ينظر في ملامحها مثل طفلٍ صغيرٍ ضائعٍ في طريقٍ طويل ولقي أمهُ بعد بكاءٍ دام لساعات في البحثِ عنها ..

شام: ماذا بك، لماذا تنظرُ إليَّ هكذا ؟!

فلم يُجِبها، بقي سارحًا وعيونه تلمعُ من شدّةِ الحب .

أعادت شام السؤال على مسامعه مرة أُخرىٰ : ماذا بك ؟!

وقلبها يرقصُ فرحًا بالحبِّ الذي كان يُروى لها في تلكَ اللحظة.

باغتَ أفكارها قائلًا : أتعلمين أنكِ بداخلي أكثر منّي ؟

أكمل ويداها ترتجفانِ من البرد، وقلبها يرتعش من جمالِ كلماته : لآ تعلمُ ماذا تفعل في لقاءٍ كهذا، أحلمٌ هذا أم واقع .. ؟!

في تلك اللحظة لم يكن يفصلهما شيء غير خطوة واحدة، لا حواجز بينهما، وحيدان، سارحٌ كلٌّ منهما في ملامح الآخر..

عيناه تحدّقان في عينيها مباشرة، وهي لم تستطع أن تبعِدَ عينيها عنه ...

نظرةً بنظرة، اقترب منها إلى أن تلاشت الخطوة التي كانت بينهما.. أضاعت نفسها حين نطق هو :

- أحبكِ، أحبكِ يا مجنونة....

فردت شام قائلةً: وأنا أحب..... !

ومآ ردعها عن إتمامِها إلّا عناق اقتحم فيهِ أنوثتها، وكبريائها.

لفَّها بيديه، فما كانَ منها إلّا أن قامت بلفِّ يديها حول ظهره، شعرت حينها بأنها تريدُ الاختباءَ داخله، أن تكون جزءاً منه، أن تكون هو ..

كانت تظنُّ أننا ضعيفات جدًا، ونمتلكُ سواعدَ هشة، لكنها اكتشفت حينها أنَّ العناق يجعل الأنثى من بيننا تمتلك زنودًا عاصرة، قوية، مليئةً بالحنانِ والدفء ....

همس لها: لا أريدُ لهذا العناق أن ينتهي، أريدكِ أكثر ...

وما كان منها إلّا أن شدَّت يداها حول ظهره أكثر...

لم تكن تتمنى أن ينتهي هذا العناق، وأن يتوقف الزمان في تلكَ اللحظة لسنوات أو ربما لقرون، ليبقيا متعانقان ....

قطعَ عناقهما أحدُ المارّة...

شام: أريدُ الذهابَ الآن ..

وطن: إلىٰ أين ؟!

شام: إلىٰ البيت، فلا أستطيعُ التأخرَ أكثر من ذلك ...

فالتفتت شام نحو السيارة، لكنه لم يفلت يدها وقام بشدَّها مرةً أخرى وأخذها بين ضلوعهِ كعناقٍ يسألها البقاء ...

وقبَّل كفَّ يدها ...

فاتجهت شام نحو السيارة ليوصلها للبيت، بقي عطرها عالقًا في ملابسه...

صعدت للسيارة وهي منتعشة بروحٍ أخرى، بضلوعٍ أزهرت بداخلها الورود، تنظرُ للحياة بكل تفاؤل، كمريضٍ شُفيَ من أوجاعه وآهاته التي دامت لسنوات؛ فكانَ هذا العناقُ دواءً للأوجاعِ التي أنهكت روحها ..

فبعدَ هذا العناق، أحبته أكثر، وبعد كلِّ عناقٍ ستحبه أكثر وأكثر..

فأيُّ وطنٍ هذا الذي استقر بين أضلعِ وطن ؟!

وأيُّ وطنٍ استقر بين أضلعكَ يا عروة، حينَ طلبت منكَ هناء أن تحتضنها؟ أتذكر كم كانت سعيدة بين يديك ؟

حين وصلا لبيتِ شام، وقبل أن تنزلَ من السيارة التفتَت لوطن بابتسامة ..

كان ردُّ وطن على ابتسامةِ شام بسيطًا، يحتوي الكثير من اللهفةِ والحبِّ والشغف، حين قال : أحبكِ شامي، ولن أمتنعَ عن حبكِ ما دمتُ حيًا... أحبكِ بقدرِ ما يحدثُ من ألمٍ، وحزن، وبقدرِ ما قدمنا لهذا الوطنِ من دمائنا ... أحبكِ شامي.
ابتسمت شام ابتسامةً خجولةً تحتوي العديد من التساؤلات والخوف والتردد والسعادة في آنٍ واحد، ومن ثم قالت له : أحبك.. ونزلت من السيارة، وأوصتهُ بأن ينتبه لنفسه ..

دقت شام الباب، ففتحت لها والدتها فرَمَت بنفسها في أحضانِ والدتها وأخذت تُقبلها بحرارة ..

سألتها والدتها: ماذا بكِ يا ابنتي ؟!

شام: لا شيء يا أمي، أحبكِ فقط ..

ودخلتا سويًا للبيت، غيرت شام ملابسها، وجلست هي وعلي بوجودِ والدتها بجانبِ المدفأة..

برجوعِ وطن للبيت، كانت السيارة ما زالت تراقبه، شعرَ أن هناك شيءٌ ما يحدث، وصلَ إلى البيت بسلام، حينَ دخلَ وجد والديهِ وإخوتهِ في انتظاره..

جلسَ الجميعُ يتحدثون كالعادة ..

بعد مرور ساعةٍ بالضبط، اتجه كلٌّ من شام ووطن إلى فراشهما، اتصل وطن بشام ليحادثها قليلًا قبل النوم ..

شام: آلو

وطن: شامي !!

شام: هل وصلت البيت ؟!

وطن: نعم منذُ ساعة، أخبريني أأنتِ بخير ؟!

شام: نعم بخير، وطن قل لي، من الذي يراقبك ؟!

وطن: لا أعرف ، لا تفكري في الموضوع، الأهم من هذا هو أنني أحبكِ ..

شام: وأنا أيضًا .

وطن: ارتاحي الآن، فقد اتصلتُ بكِ لأذكركِ بأنني أحبكِ، تُصبحين على خير شامي الجميلة .

شام: إلى اللقاء ..

أقفلا الخط، ونامت شام بأمان، لكن وطن بقي مستيقظًا يفكر، من الذي يراقبه؟! وما سبب المراقبة ؟! وما نهايةُ هذهِ المراقبة ؟!

بعدَ ثوانٍ دُقَّ بابُ غرفته..

وطن: مَن ؟!

أم محمد: أنا يا بني..

وطن: تفضلي يا أُمي ..

دخلت والدتهُ وجلست بجانبه قائلةً: ماذا بكَ يا بني ؟! أشعرُ أن هناكَ أمرٌ ما يحدثُ معك ! أُريدُ أن أطمئن ..

وطن: لا شيء، أنا فقط عشقتُ يا أمي ..

ضحكت أم محمد: قُل لي يا بُني ! من هيَ ؟! وكيف حدثَ ذلك ؟! قُل بسرعة ..

وطن: ستعرفينَ قريبًا يا أُمي، فقط لا تنسيني من دعائك، وقبَّلَ جبينَ والدته ..

ومن ثمَّ تركته والدته ليرتاح، وذهبت هي أيضًا للنوم ..

شعرَ وطن أن حديثهُ مع والدته قد أمطرَ على قلبهِ طمأنينة ..

الأمهات هُنَّ الوحيدات اللاتي يشعرنَ بما يعيشهُ أبنائهن يا عروة، إن كانَ الذي يعيشونهُ ظهرَ على ملامحهم أم لا، فقلوبهنَّ تنقبضُ من الخوفِ على أبنائهن، وفي أوقاتِ الفرح تفرحُ كل أمٍ لابنها أكثرَ من فرحهِ لنفسه ..

لكن ماذا إن رُزِقنَ بأولاد ناكرين للمعروف، لا يعترفونَ بفضلِ أمهاتهم عليهم ك محمد ..

فقد كانَ لا يسألُ إطلاقًا عن أهله، وحينَ تتصلُ بهِ أمه، لا يرد، وإن قامَ بالردِّ عليها تكن طريقة كلامه تدعو للحزن ..

لم يكن الأمرُ هينًا أن ترى أم محمد الفجوة المُريعة بين أولادها ولا تستطيع فعلَ أيِّ شيءٍ سوى الدعاء، كانت تتمنى لو عادا صغيرين لتستطيعَ ضربهما وإجبارهما على احتضانِ بعضهما، وتستطيع زرعَ معاني الأخوةِ من جديدٍ في أعماقهما، كان يؤلمها أن تراهما يفترقانِ بإرادتهما بسببِ موقفٍ سياسي، أو بسبب غيرة نَمَت بداخلِ أحدهما وبقيت وتحولت لكره ..

إنهُ أمرٌ موجعٌ يا عروة، موجعٌ للغاية ..

بدأت حملة الانفجاراتِ في أماكن معينة ذات أهمية في العاصمة دمشق تحديدًا، وما زالت المراقبة مستمرة لكلِّ صحفيٍّ على حِدا، وبالمقابل يكبرُ العشق في قلبيهما " شام ووطن "، يكبرُ بطريقةٍ مجنونة.

كانَ كلُّ شيءٍ على ما يُرام .. وبقي وطن ملتزمًا بزياراتهِ لأحمد في المشفى، لكن لم يعد يُظهر مشاعره لشام، فظنَّت أن الحبَّ داخلهُ بدأ بالنقصان، فلمَ هذا الكبرياءُ المفاجئ؟ ولمَ لا تستمرُ البدايات طوالَ العمر؟ هذهِ الأسئلة بقيت تتراودُ لذهنِ شام، بالرغمِ من أن وطن يتصل بها كل ليلةٍ؛ ليخبرها بأنه يحبها، وحينَ يخرجانِ سويًا

ترى هذا الحُبَّ في عينيه، لكن لَمَ يُظهرُ العكس في زياراتهِ فقط للمشفى، كانَ هذا السؤال الذي طرحتهُ شام على وطن في تلكَ الليلة، حينَ اتصلَ بها كالعادة قبل النوم ...

وطن: مساء الخير شامي، كيفَ حالكِ؟

شام: أنا بخيرٍ يا وطن..

شعرَ بتغيرٍ في نبرةِ صوتها، فسألها ما بكِ ؟

حاولت شام ألّا تخبرهُ بما تشعر، لكنهُ أصرَّ عليها أن تتحدث بما في نفسها..

شام: ألم تعد تحبني يا وطن ؟

وطن: ما الذي تقولينهُ يا شام ؟ أحبكِ كثيراً .. ما سببُ هذا الكلام ؟

شام: إذًا لَمَ تتجنبني في حالِ زيارتكَ إلى المشفى ؟

ضحك وطن وقال: لا أريدُ لأحدٍ أن ينتبهَ لنا، أن ينتبهَ لكِ في عيني، أغارُ عليكِ من كلِّ شيءٍ يا شام، حتى من نظرةٍ يمكن أن ينظرها أحدٌ لكِ إن عرفَ أنكِ حبيبتي .. أتفهمينَ ما أقول ؟

شام: لكنني أنثى يا وطن، وأحبُ أن أرى حبك لي في كلِّ زمانٍ ومكان ..

حاولَ وطن أن يأخذَ الموضوع وكأنهُ شيءٌ بسيط، لكنَّ شام كانت جدّية جدًا في حديثها، وأقفلت الخط وهي تبكي..

كانت أول ليلة تنام فيها شام وهي تبكي بسبب وطن، شعرَ حينها أن رجولته يشوبها بعضُ الشوائب؛ لأنه لم يَقُم باحتواء حبيبته وتفهم ما تشعر به لأول مرةٍ منذ ابتداءِ علاقتهما ..

لم ينم ليلتها، وهو ينتظر أن يأتي الصباح؛ ليذهبَ إليها، ويُراضي قلبها ويعتذر عن كلِّ دمعةٍ هطلت من سماءِ عينيها بسببه ..

عروة، كل واحدةٍ منّا تُحبُّ أن تؤخذُ أسبابُ حزنها على محملِ الجد، تحديدًا من الإنسانِ الذي تُحب ...

أتى الصباح، وخرجت شام لعملها، كانت كئيبةً في ذاك اليوم، وصلت المشفى وابتدأت عملها وأنهته وهي لا تستطيعُ أن تبتسمَ حتى، إلى أن أصبحت الساعة السادسة مساءً ذهبت لغرفةِ طفلٍ صغيرٍ للاطمئنانِ على حالته بعد أن كانت تضربهُ زوجةُ أبيه، كانت أمهُ تجلسُ بجانبهِ وتبكي وتعتذر له بسببِ تركها له، بالرغمِ من أنهُ لم يتجاوز الخمسَ سنوات ولم يكن يفهم ماذا تقول أمه... لكنهُ كانَ يبتسم لها، حاولت شام أن تداعبهُ قليلًا؛ لتستطيعَ إعطائه الدواء الذي لا يُستساغ أبدًا ..

فحينَ ابتسمَ لها، ابتسمت في وجههِ وأعطتهُ الدواء، وقامت باحتضانه، وهدَّأت من روعِ أمه، واستأذنت منها للخروج، بعد أن أخبرتها بأنها ستعود في وقتٍ لاحق لتطمئنَّ عليه ..

وحينَ خرجت من الغرفة متجهةً لغرفةِ الممرضات، قامت بتغيير ملابسها، وأخذت أغراضها وخرجت من المشفى قاصدةً البيت، لم تكن ترد على اتصالات وطن ..

حينَ وصلت الشارعَ الرئيسي لتستقلَّ سيارة أجرة، رأت وطن يقفُ قريباً منها، فوقفت تنظرُ إليه وفي نفسِ الوقت كانَ الغضبُ

منه يكبرُ داخلها، اقتربَ منها وأمسكَ بيدها ليأخذها لسيارته، فلم توافق وسحبت يدها من يدهِ بغضب، وصرخت في وجههِ : اتركني، فوقفَ ينظرُ في عينيها وهي تمطر، وأصرَّ على إمساكِ يدها، شدَّها بقوة ومشيا سويًا وصعدا إلى سيارته، أخذها لنفسِ المكانِ الذي كانا فيهِ سويًا حينَ احتضنها لأولِ مرة، لم يتكلما طوالَ الطريق وشام تبكي بهدوء، حين وصلا أجبرها على النزولِ من السيارة، وأخذها لنفسِ ذاك الزُقاق، وقف مقابلًا لها قائلًا: شامي، لمَ هذهِ الدموع؟ ما بكِ ؟

فلم ترد، أعادَ عليها السؤال مرةً ثانية، لكنها صرخت في وجهه قائلةً: يقتلني ذلك الصمتُ الذي يخيم على علاقتنا يا وطن، فقد كنت تعبّرُ عن كل ما تحمله داخلك لي، وأصبحتَ لا تعبر ..

وإن رأيتك في المشفى لا تبادلني النظرات ولا الضحكات كما كنّا في السابق قبل اعترافكَ لي بشكلٍ مباشر، أصبحتُ أراكَ وسطَ الحضورِ، أضيع في تفاصيلك، وأتمناك وأنتَ قريباً مني ولا أستطيعُ الاقتراب منك ولا الحديث معكَ حتّى..

اقتربَ منها كثيرًا قائلًا: وأنا كذلك، أحبكِ وأتابعُ كل حركةٍ منكِ وكل كلمةٍ وابتسامةٍ ونظرة، لكنني رجلٌ لا يجاهر بمشاعره أمامَ أحد .

شام: وهذا ما أود تغييره، كأنَّ من حق الجميع أن يتكلم معك، يُمازحك، يضع يده على كتفك، إلّا أنا ...

كنتُ أشعرُ أن أفعالكَ ما هي إلّا توصيات تحذرني من الاقتراب منكَ بوجودِ أحد..

كانت تعتقد شام أن هذا النوع من الحب يقتل المشاعر يا عروة، لكن مع مرور الوقت تأججت أكثر، فبعد بعد كل الإيماءات التي كانت تحدث بينهما كانت تغرق به أكثر، وهو لم يكن يحبها فحسب، بل يهيم بها، وكانت تدركُ ذلك وتشعرُ به جيداً، إلّا أن أكثر ما كان يزعجها في علاقتها به أنّها لا تستطيع أن تعلنها على الملأ .. هو من كان يمنعها من هذه الخطوة، كانت تشتهي أن تضع يدها في يده أمام الجميع ، تلمسه، ترمي برأسها المثقل بالهموم على كتفه بلا تحفظ، وكان هو عكسها تماماً لا يُفضّل أن يظهر مشاعره أمام

الآخرين، وعندما يجتمعان بلقاءٍ ما، كان يتمالك نفسه حتّى لا يُكتشف أمره .

كانت شام تتحدث وتبكي، فلم يستطع رؤيتها في هذهِ الحالة، غضبَ من نفسهِ لأنه كانَ سببًا في بكائها، فضربَ قبضةَ يدهِ في الحائطِ الذي كانت ترتكزُ عليه شام، فسالَ الدمُ من يده ..

فازدادَ بكاء شام، وأمسكت بيدهِ، وهي تنظرُ له، فقال لها: أعتذر شامي، أعتذر ..

وقامَ باحتضانها بحرارة، فهدأت حينَ ضمَّها لصدره، ونسيت كل ما حدث، وذهبا سويًا للسيارةِ ليوصلها للبيت ..

كان وطن على قناعة بأنَّ الحب من المشاعر المقدسة التي على المرءِ أن يمارسها سراً يا عروة، ومن الطقوس التي يجب أن يؤديها بعيداً عن عيون الناس وبمعزلٍ عنهم ... فعلى الرغمِ من أنه كان يعاملها أمام الناس بكل تحفظٍ ويحاول قدر الإمكان ألّا يرى أحداً ملامح الحب على وجهه، إلّا أنه فيما بينهما كان يغدقُ عليها بالحب، بطريقةٍ لم تألفها من قبل، فهي في نهاية الأمر تحبه هو، وتريده هو، رغم

أنها كانت تفضل المجاهرة بعلاقتها به، وأن ترى الحب في عينيه على الملأ من غير خوف أو خجل، وتود لو أنها تستطيع كتابة اسمه على جبينها إن لزم الأمر، ولكنها أدركت فيما بعد أن المشاعر لا تقال ولا توصف بالكلمات بل تُعاش، وأن الحب من الأفضل أن يكن بين السطور وفي القلوب، وأن بعض قصص الحب ستُخلّد، حتى وإن لم يعلم بها سوى من عاش تفاصيلها..

عرفت شام في نهايةِ الأمر، أن وطن لم يكن مجردَ رجلٍ يحب، بل كانَ رجلًا يُتقنُ الحب، وهذا هو الأهم، فكل أنثى يهمها أن يكون في حياتها رجلٌ يُتقنُ الحب، يدافعُ عن حبهِ لها، وتسبقُ أفعالهُ كلامه ...

عادت الأمور لطبيعتها بينَ شام ووطن بعدَ تلكَ الليلة، لكنَّ الذي لم يكن طبيعياً هو أن الانفجارات أصبحت متتالية بشكلٍ لا يُحتمل، فبين كل فتحة عينٍ وإقفالها، كانَ يسمعُ صوت دويّ الانفجارات، فالمشافي أصبحت ممتلئةً بالدماءِ والدموعِ، لمدةِ أسبوعين كاملين، كانَ يصعبُ على شام ووطن أن يلتقيا في هذهِ

الحالة، فكانا يكتفيانِ بمكالماتٍ بسيطة للاطمئنانِ على بعضهما إلى أن يهدأ الوضعُ قليلًا ..

وبدأت حملةُ اختطافِ الصحفيين الذينَ تتواجدُ أسمائهم في القائمةِ السوداء كما يسميها " الذئب "، وأصبحَ محمد تحت الأمرِ الواقع..

مرَّ الأسبوعان كالكابوس، جنازات متتالية، ودماء تملأ الجدران والأرضيات، غرف لم تستطع استيعاب الأعداد فأصبح الجرحى على الأرض، وسيارات للإسعاف تمَّ تفجيرها، وأخرى مُنعَت من المرورِ لإسعافِ المصابين..

إلى أن أُعلنَ عن هُدنة مدتها ساعتين فقط، حينَ سمعَ وطن بهذا الخبر خرج مسرعًا من المنطقة التي كان متواجدًا فيها، متجهًا للمشفى؛ ليرى شام ولو لدقائق معدودة في ظلِّ الظروفِ الراهنة، حينَ استقلَّ سيارته متجهًا للمشفى كانت تراقبهُ ذات السيارة، حاول وطن أن يغيب عن أنظارهم لكن لم يستطع، بعد مرور نصف ساعة وصلَ المشفى ودخل مسرعًا يسأل عن شام، فدلتهُ أحد الممرضات على مكانها، فالتقى بها وطن في أحدِ الغرف تقوم بعملها، حينَ وصل قام بمناداتها فخرجت إليه وقد ظهرَ الخوف على

ملامحها: وطن، ماذا بك، قُل لي، وكيف استطعت المجيء إلى هنا؟ الوضعُ سيء !!

لم يُجِبها وطن على أيِّ سؤال، بل أمسكَ بيدها، وقال لها: خُذيني لغرفةِ الممرضات .. فقامت بأخذهِ إلى هناك، كانت الغرفة فارغة تمامًا ..

أقفلَ وطن الباب، وقامَ بخلعِ كاميرتهِ وسُترته، فسألتهُ شام ما بك؟

وطن: أنا بخير يا حبيبتي، لكنني أتيتُ مُسرعًا لرؤيتكِ، فهناكَ هدنة مدتها ساعتين فقط..

شعرَ وطن، أنهُ بحاجةٍ لاحتضانِ شام، والحديثِ معها..

وطن: شامي، اشتقتُ لكِ كثيرًا.

شام: وأنا أيضًا اشتقتُ لك..

أخذها في أحضانهِ، وأخذَ يُداعبُ خصلات شعرها بأصابعه..

نظرت في عينيه، وقالت: أحبـ.....

وما ردعها عن إتمامها، إلّا دخول أشخاص لا يُعرفُ لهم هوية، قاموا بجرِّ وطن بكل وحشية خارجَ المشفى، حاولت شام منعهم، فقام أحدهم بدفعها بكل قوةٍ حتى ارتطم رأسها بالحائط، إلّا أنها لم تكترث للألمِ الذي حلَّ بها، ولا للدماءِ التي سالت منها، وقامت تركضُ خلفهم تتوسل لهم بتركه وشأنه، ولم يستمع لها أحد ..
وفي ضجة ملأَت المكان وبين أحاديثِ من كان متفرجًا على وطن وهو مجرور بوحشية إلى خارج المشفى، ودموع شام وهمسها لوطن بالبقاء، ونظراتهم المليئة بالشفقة شعرت شام أن لعنة الفراق ستبقى تُلاحقها ما دامت حية، في بداية الأمر فارقت أباها وكانت الخسارة الأكبر في حياتها أنها عاشت من غير أب يكون لها الملجأ الذي تلجأ إليهِ دائمًا...

" ذهبَ وطن دونَ عودة ".. هذا ما توارد لذهنِ شام في ذاك الوقت، وأنَّ الفرح لا يعرف طريقًا لقلبها، وما إن بدأت تعتادُ على خساراتها السابقة، حتى عادت لمحاولة التأقلم من جديد مع خسارات جديدة، لُتعيدها لبداية الطريق..

رجعت شام لغرفةِ الممرضات، أخذت سترتهُ وكاميرته؛ لتخبئها في خزانتها في غرفة الممرضات، كان الشعور مؤلمًا وهي تُلملمُ ما بقي

ورائه، وكأنه خرج ميتًا ولن يعود، هكذا كان الشعور بالضبط حين فُقدَ والدها ولملمت أشيائه لآخر مرة بعد مدةٍ من غيابه ..

كم يبدو الأمر مميتًا يا عروة حين يرحل من حياتنا أشخاصٌ لا نعرفُ إن كانوا سيعودون أم لا، أو نفارق من قبضَ ملك الموت روحه دون سابقِ إنذار، وفي الحالتينِ نحترقُ نحن ..

حاولت أن تعود شام لعملها بعد أن خيّم الحزن على قلبها بعد كلِّ ما حدث، وبدأت معاناة وطن في الجانب الآخر، حين خرج من المشفى وضعوهُ في سيارة وقاموا بتغطية عينيه حتى لا يرى شيئًا قط، كان الخوف يملأ قلب وطن، والحزن يأكل من روحه، وهو يتذكر نبرة صوت شام وهي تناديه وتتوسل لهم بعدم أخذه..

كان ضائعًا بين صوت شام ومصيره الذي لم يُعرف بعد..

مرَّ من الوقت خمس ساعات على خروج وطن من المشفى، ثم بدأ يسمع أصواتًا غريبة، فأصبح يسأل عن مصدر هذه الأصوات وماهيتها، لكن بعد كل سؤال له كان يُركَل بالأقدام، ويصيبه من الألم الشديد ما لا يُحتمل.

كم هو مرعبٌ أن يجهل المرء طريقه، ولا يعلمُ نهايته، أن يخطو خطواته والخوف يملؤه، أن ينظر حوله منتظرًا أن يرى ولو علامة صغيرة تُطمئنُ قلبه.....

بعد مرور ما يقارب العشرَ ساعات، أُخِذَ وطن إلى مكانٍ غريب، لا يحتوي شيئًا من علامات الأمان والدفء، بل تملؤهُ البرودة، ولا يُسمعُ فيهِ إلّا صوتُ قطرات الماء وهي تسقطُ هاويةً من السقفِ لترتطم بالأرض بطريقة مُزعجة ... هُنا بدأت الرحلة، رحلةُ الألمِ والأملِ في آنٍ واحد، في ظلِّ أنه في طريقٍ مجهول آملًا أن يرى في نهايته ابتسامة شام ..

مكثَ وطن في ذاك المكان لمدةِ يومين متتالين، لم يدخل أحدٌ عليهِ قط، وهو لا يسمعُ إلّا همسات تُطلقُ وراء الباب الذي يفصلهُ عن الشيء الذي يودُّ معرفته.. كثيرًا من الأسئلةِ تتخابطُ في رأسه.

أين هو ؟!

وما هذا المكان ؟!

وما هي نهاية هذا الخوف ؟!

وماذا تفعلُ شام ؟!

بالمقابل، قامت شام بالاتصالِ بأهلِ وطن؛ لإخبارهم عمّا حدث، حينَ أقفلت الخط بعد إخبارها لهم، قامَ أبو محمد بالاتصالِ بابنهِ محمد..

أبو محمد: آلو .

محمد: أهلا يا أبي، ماذا هناك؟

أبو محمد: اختُطِفَ وطن، من قِبَل أشخاص غير معروفين .

محمد: وكيف عرفت؟؟

أبو محمد: اتصل بنا أحد الممرضين في المشفى الذي كانَ يمكثُ فيها وطن حينَ حدثَ ذاك الانفجار.. اسأل عن أخيكَ يا محمد.

ردَّ محمد والرجفةُ تسكنُ صوته: أين أسألُ عنه يا أبي؟ ومن أسأل؟

فصرخ أبو محمد على الهاتف: محمد أريدُ أن أعرفَ أين وطن، معكَ مُهلة يومينِ فقط لتأتي لي بخبر عنه، وأقفلَ في وجههِ الخط ..

بدأت أم محمد بالبكاء، وكأنَّ وطن قد مات، في حينِ أن شام كانت تعمل وعقلها يمكثُ في نفس المكان مع وطن، لم يكن هناكَ طعم لأيّ شيءٍ قط، بل إنها كانت تهربُ من يومها بطريقة موجعةٍ لقلبها ..

إنَّ ما يحدث ما هو إلّا ماساة يا عروة، لا يمكن لقلبِ إنسان أن يحتملها مهما كانَ قويًا، هناكَ أمور حين تمر على قلوبنا تبدو وكأنها بمثابة صخرة وِضعت على قلوبنا لتقتلها ..

اختلطَ الليل بالنهار، أو ربما تداخلا، أو يمكن سبقَ أحدهما الآخر..

وبدأ وطن يخاطب نفسه مواسيًا: ماذا يعني الليل والنهار لسجينٍ يمكثُ في مكانٍ منفصل عن عالمٍ بأكمله، ولا يستطيع فعلَ شيء سوى استنشاق هواء الزنزانة الخانق، ولا جريمة بحقهِ سوى أنه ينقلُ الحقيقة كما هي.

بعد مرور يومين، فُتحَ الباب الفاصل عن العالم الآخر بالنسبة لوطن.

كانَ نائمًا على أرضية غرفةٍ تبلغُ مساحتها مساحة سرير طفل صغير، فتحَ نصف عينٍ على صوتٍ يقول له: قُم أيها الصحفي القذر

لم يكن قادراً على النهوض، لكنه حاول ..

وبالرغم من محاولته إلا أنه استقبلَ ركلةً في بطنه أوجعته كثيرًا، أجبر نفسه على الوقوف، ووقف ببطء.

مشى في ممرٍ طويلٍ مع شخصين يغطّيان وجهيهما، لكنهما لم يسكتانِ أبدًا فبكل خطوة كان وطن يسمعُ منهما أقذر الكلام، والشتائم. مع بعضِ الركلاتِ والضرباتِ على بطنه ووجهه تحديدًا.

وصلوا في نهاية الممر، إلى غرفةٍ لا يقطنها أحد، فقط تحتوي على ضوءٍ خافت وكرسي مهترئ، وطاولة.

جلس وطن على الكرسي منتظرًا أن يفهم ما الذي يجري، بعد

مرور نصف ساعة، فُتحَ باب الغرفة ليدخل عليهِ رجل يبدو وكأنه رئيسُ عصابة، يدعى " الذئب "
كانت نظراته لوطن تحتوي الكثير من الحقد، طلب منه الوقوف، فوقف وطن من جديد بعد عناء..
الذئب : ما اسمك؟
وطن: اسمي وطن
الذئب : كم عمرك؟
وطن: 30 عامًا
الضابط: وهل تعمل مع جماعاتٍ معينة لتفضحَ أمورًا لا علاقةَ لكَ فيها؟
وطن: أنا لا أعمل لصالحِ أحد، أنا فقط أنقلُ الحقيقة كما هي، دون أدنى تشويهٍ أو تغييرٍ للحقيقة.
الذئب : يعجبني بك أنك تتكلم بثقة..!!
وطن: الذي تتكلم عنه هو وطننا جميعًا، ولن يسعى أحدٌ لتشويهِ ما يحدث، لأنه واضحًا كالشمس ..
وإن كنتَ أنتَ ممن يكرهون هذا الوطن، فهذهِ مشكلتك أن.....
وما ردعهُ عن إكمال كلامه سوى ركلة من " الذئب" جعلته يرتمي أرضًا من الألم، وبعضًا من الشتائم التي تحمل من القذارة ما لا يُحتمل..

ثم دخل عليه المزيد من الأشخاص، لينهالونَ عليه بالضرب المبرّح، ركلة من هنا، وشتيمة من هناك، والأصعب حين مسك أحدهم رأس وطن وبدأ بضرب رأسه بالحائط إلى أن نزل دمه...
كل ذلك والضابط يُشاهد، كان سعيدًا بألمِ وطن، لدرجة أنه استلذَّ بما يرى حين أشعلَ سيجارته وجلسَ متفرجًا على وطن وهو يُضرب بطريقةٍ وحشية ..
طلبُ ممن أحضروهُ أن يُرجعوه للغرفةِ ذاتها، واتصل بمحمد ..
الذئب: آلو.
محمد: أهلًا، هل هناكَ أخبار جديدة ..
الذئب: نعم، لقد قُمنا باختطافِ جميع الصحفيين الموجودة أسمائهم في القائمةِ السوداء..
محمد بصوتٍ مرتجف : والصحفي وطن موجودٌ معهم ؟
الذئب: نعم، سنقومُ بالتحقيق معهم وبعد ذلك نقومُ بالاتفاق معك لتقوم بتسليمهم لأي مركزٍ أمني بتهمة تراها مناسبةً لهم ..
محمد: حسنًا .. وأقفلَ كلٌّ منهما الهاتف ..
شعرَ محمد بأنهُ مستضعف بطريقةٍ مقرفة، تحديدًا أنه عرف أن وطن بينَ المختطفين ولا قدرةَ لهُ على فعلِ شيء، واتصالِ أبيهِ الذي زادَ الحملَ عليه، وبُكاءِ أمه على الهاتفِ أيضًا ..

لكن بالمقابل يفكرُ بالمبلغ الذي سيقبضهُ مقابلَ تسليمِ الصحفيين لأي مركزٍ أمني بعد تلفيقِ تهمة لهم، ليبدو الأمر قانونيا، ويُبعِد الشُبهات عمّن يعملُ معهم ..

أيُّ عدلٍ هذا يا عروة ؟!

أن يعامل الإنسان كالحيوان، أن يُقهر، ويُذل، ويُشتم، ويُضرب، ولا يُسمحُ له بالتألمِ حتى.

يبدو أن الذين يتحدثون بالحقِّ دائمًا مصيرهم واحد، ولا مفرَّ منه، فكثيرًا ممن كانوا أصحابَ أقلامٍ حُرّة، وكاميراتٍ صادقة كان مصيرهم الموت، أو الإذلال...

وأيُّ عدلٍ هذا حينَ يبيعُ الأخُ أخاه مقابل مبلغٍ معين، وكأنهُ صفقةً كأيِّ صفقةٍ يقومُ بها ..

أعادوا وطن إلى تلك الغرفة المظلمة، أعادوه وروحهُ تتمزقُ من شدّة الألم، لم يعد يعرف إن انجلى الليل، أو أقبل النهار..

أغمض عينيه إلى أن استيقظ لوحده، كان قد خفَّ الألم قليلًا، بدت خيوط الشَّمس وهي تُطلُّ عليهِ من تحت عتبة الباب وكأنَّ الخجل يتملكها، وهو لا يستطيع فعلَ شيءٍ سوى النظر لخيوط الشَّمس والتفكير بشام، بعد ليلة قدمته للموت بسهولة، ولكن الموت رفضه، لتعذبه الحياة أكثر ..

يبدو أنَّ الموتَ أحيانًا يكون متواطئًا مع من يجلدون أرواحنا وأجسادنا، فيُبقينا لنواجه ما نحنُ بهِ من ألم..
أصبحت الأيام تمرُّ متشابهة، لا يُعرف لها طعمٌ ولا لون، يملؤها الألم، لكن في ظلِّ هذا كله كثرت الحوارات بين وطن وجدران تلك الغرفة الصغيرة ..
عن ماهية شعوره تجاه شام، كيف يمكن للشعور أن يستوطنه تجاهها حتى وهو في عزِّ ألمه، وفي أوجِ معاناته ...
كثيرًا من الأسئلة تدور في ذهنه، هل سيلتقي بها مرةً أخرى ؟!
هل سيكون لهُ نصيبٌ في إكمال حياتهِ معها ؟!
وفي وسط كمِّ الأسئلة الذي يُحاصره، كانت تأتيهِ ابتسامة مفاجئة في الوقت الذي كان يتذكر فيهِ شام، وما أكثر الأوقات التي كان يتذكر شام فيها، لم تكن مجرد أنثى تمرُّ في حياته لينساها بسهولة، بل كانت مختلفةً نادرةً بالنسبة له..
ويأتيهِ النومُ فجأةً وهو يفكر بها ..
ليصحو من جديدٍ على ألمٍ جديد...
كان هناكَ صديقاً لطيفاً لوطن، يمكثُ معه في نفسِ الغرفة المشؤومة، اسمه " إبراهيم" يحاولُ التخفيفَ عنه في ظل أنهما يتشاركانِ الألم ذاته.

في إحدى المرات رجعَ وطن إلى تلكَ الغرفة بعد غيابِ ساعتين متواصلتين، ذاقَ فيها الألم من شدّةِ الضربِ والتعذيب..
عندما وضع جسدهُ على أرض الغرفة المشؤومة ليرتاحَ قليلًا مما أذاقوهُ إيّاه، فتوجهَ لهُ إبراهيم بسؤالٍ وهو يئنُّ من شدّة الألم: كيف حال شام داخلك؟
فابتسمَ وطن وهو يتألم وقالَ له: إنَّ حبها يكبرُ داخلي كل يومٍ بمقدارِ الألم الذي أذوقهُ وأكثر ..
إبراهيم: وعندما تخرجُ من هنا، ماذا ستفعل؟
فأجابهُ وطن: سأذهبُ لتلك المشفى التي رأيتُ فيها ابتسامةَ شام، سألمحها من بعيدٍ لأطمئنَّ أنها ما زالت بخير، ومن ثمَّ أُكمل غيابي لفترة قصيرة أخرى إلى حينِ شفائي تمامًا من كل هذه الجروح التي يحتويها جسدي..
إبراهيم: ولمَ لا تُريها نفسكَ بهيئتكَ هذه؟
وطن: لا أريدُ أن تراني وأنا ضعيفٌ هكذا، إبراهيم؟
إبراهيم: نعم يا وطن، أتريدُ شيئًا ؟
وطن: لا يا صديقي، لكنك من أينَ تعرفُ أنني أحبُ فتاة اسمها شام؟

إبراهيم: في إحدى المرات التي عُدتَ فيها من التحقيق، كنت تنادي باسمها وأنت تتألم، إلى أن ذهبتَ في نومٍ عميقٍ من شدة التعب ..
ضحكَ وطن وقال: وكنتُ أحلمُ بها أيضاً.
إبراهيم: ومنذ ذاكَ الوقت وأنا أدعو الله أن يرزقكَ إياها ..
وطن: آمين، فإنني أحب....
وما ردعهُ عن إتمامها إلّا أنّه ذهب في نومٍ عميقٍ من شدة التعب أيضًا ..

يبدو أنَّ الحُبَّ هو من يهوّنُ علينا يا عروة، ويخفف آلامنا، ويكتمل حين يكون اختيارنا صحيح؛ فالحبُّ لا يحتاج أشباه رجالٍ يا عروة، فكم من رجلٍ ظنَّت بهِ حبيبته خيرًا ونَسيَت إن بعضَ الظنِ إثم،وثقتها العمياء بهِ خذلتها..
الحُبُّ ما هو إلّا شعورٌ عظيمٌ يحتاحُ مداخلَ الروح ومخارجها، ليُضيء عتمةً دامت لسنواتْ .. وهذا ما حدثَ مع وطن حينَ أحبَّ شام..

استيقظَ وطن بعد مرور ثلاثِ ساعات، استيقظَ وهناكَ سعادة تسكنُ ملامحه.. نظر إلى يمينهِ فوجدَ إبراهيم ينظرُ إليه ..

فقال له: ما بالكَ تنظرُ إليَّ هكذا؟
إبراهيم" وهو يضحك": وما بال ملامحكَ تبتسم؟
وطن: حلمتُ بها يا إبراهيم، رأيتها تحاول معالجتي من جراحي هذه.
إبراهيم: وهل عالجتك؟
وطن: رؤيتها وإن كانت في الحلم تخففُ عنّي الكثير مما أُعانيه ..
إبراهيم: رزقك الله إياها..
وطن: آمين.. هل أذّن العصر؟
إبراهيم: نعم، لنقم للصلاة سويًا يا وطن...
وقاما سويًا للصلاة، كانت الصلاة تمنحُهما شعورًا جميلًا بأن كل شيءٍ سيء سيمضي بإذن الله..
وكانت شام في الجانبِ الآخرِ من الكوكب تُصلّي العصر، كانت تُصلّي وتحادثُ الله كثيرًا أن يمنحها ولو إشارة واحدة لتطمئن على وطن ...
انتهت من صلاتها، وجلست قليلًا تستغفرُ الله قبل النهوض لإكمال العمل..
فجأةً، مرَّ ممرضان من جانب الغرفة التي كانت تصلي فيها شام، فسمعت منهما ما جعلها تتفاجأ ..
فقد كانا يتكلمانِ عن الصحفيين الذين تمَّ أخذهم من المشفى ..
نهضت شام، وخرجت مسرعةً تتبع الممرضان..

نادت على إحداهما: أحمد !!
فالتفتَ أحمد وقال: ماذا بكِ يا شام، أهناكَ أمرٌ ما ؟
شام : نعم يا أحمد، فقد سمعتكما منذ قليل وأنتما تتكلمان عن الأشخاص الذين تمَّ أخذهم من هنا قبل فترة، أتعرفُ شيئاً ؟
أحمد: نعم يا شام، صحيح، فقد سمعنا اليوم أنه تم أخذهم للتحقيقِ معهم بتهمةِ التجسس، والعمل لصالحِ جماعات مخربة .
شام: أيعقل هذا، إنهم مجرد صحفيين يقومون بتصوير الأحداث لنقلها للمحطات الإخبارية، كيف يمكن أن يكونوا بهذا السوء ؟
أحمد: لا أعلم يا شام.. وأدار ظهرهُ لها مكملًا طريقه..
ودخلت شام دوامة الأفكار التي تكرهها، وضاعت بين عقلها وقلبها، وبدأت الأسئلةُ بجلدها، من هو وطن؟ وهل كان يريدُ التقرب منها لهدفٍ معين ؟ أو أنه أحبها بصدق؟
عروة، هل حبنا كافٍ لنعرف نوايا من نحب ؟ هل قلوبنا قادرة على كشفِ حقيقةِ قلوبهم، أم أننا نكملُ في طريق لم تُعرف نهايته، ونقعُ فجأةً في حفرةٍ لا يمكنُنا الخروجُ منها..؟
قطع صوتُ أحدِ المرضى أفكار شام بقوله: أيتها الممرضة أريدُ مسكنًا للألم، فقد فتكَ بي ..
فقابلتهُ شام بابتسامة بالرغم من كل شيء، وقالت: إن شاء لله سآتي لكَ بالمسكن بعدَ قليل، عُد إلى غرفتك ..

وذهبت بعد ذلك لتُكملَ عملها، وأوصت إحدى الممرضات بأخذِ المسكن للمريض، ففعلت..

كانت شام تعيشُ أيامها بينَ دوامِ المشفى وزيارة أمها مرةً في الأسبوع لتطمئنَّ عليها وعلى أخيها الصغير ..

وفي كلِّ مرةٍ تذهبُ لزيارتها، كانت تدفنُ رأسها في حضنِ أمها لترتاح قليلًا من الفوضى التي تسكنُ روحها، وتخبرها عما يحدث في المشفى، وفي نصفِ الحديثِ كالعادة كان يأخذها النومُ في أحضانِ أمها..

لكن هذهِ المرة تحديدًا كانَ تفكيرُ شام مختلفًا، فأخذت تتذكر ملمسَ يدي وطن حينَ كان يداعبُ خدّيها ويضمها، وطريقتهُ في الحب، وكيفَ كان مجنونًا بحبها، وفي ذاك المكان يتذكر وطن ملمس خّدي شام، ومدى نعومةِ شعرها، وكم كانت روحها كروح طفلةٍ صغيرة تنثرُ السعادةَ في كلِّ مكان ..

أتذكر أحلامكَ بهناء يا عروة؟ أتذكر شعورك حين كانت تمررُ أصابعها بينَ خصلات شعرك، وتسألك: متى ستأتي ؟ ألم تشتاق لي ؟ وكنتَ تُجيبها أنا آسف حبيبتي ، أعرفُ أنني تأخرت، لكنني سآتي، انتظريني ..

فكانت تقابلكَ بسؤالها التي أتعبك: هل تعذبتَ بعدي يا عروة؟ فكنت تجيبها: نعم تعذبتُ كثيرًا يا هناء .. لكن قولي لي من أنتِ؟

فقالت: أنا حمامةُ الأيك، فكنت تردُ وتقول: لا، بل غصةُ العمر أنتِ ...
لتستيقظَ بعد ذلكَ مفزوعًا، مُتعبًا، والحرارةُ فتكت بجسدك .. أتذكر ؟
كل شيءٍ يبدو صعبًا للغاية، ولا يُطاق في غيابِ من نحب يا عروة، أليس كذلك؟
أنتَ ووطن تتشاركانِ الغصة ذاتها، فوطن أيضًا يرى شام في كلِّ زاوية من زوايا الغرفة المشؤومة، لكنَّ الفرق بينكما أن وطن لم يشعر بشام بالشكل المطلوب..
أرأيت يا عروة، كم يحملُ وطن في داخلهِ من حسرات ؟
اجتمعَ بعضُ الأشخاصِ للتحقيقِ مع وطن مجددًا، لكن هذه المرة كانَ التحقيق جماعي مع وطن وإبراهيم، بوجودِ الذئب وشخصينِ معه وضابط يعمل معهم كعملِ محمد بالضبط ..
فُتحَ باب الغرفةِ المشؤومة ليخرجَ منها وطن وإبراهيم بوجودِ حراسة مشددة، في طريقهم إلى غرفة التحقيق أو غرفةِ الضربِ والشتمِ .
دخل إبراهيم أولًا، وبقي وطن ينتظرُ في الخارج، وبعد مرور ساعتين تمّت مناداةُ وطن، فدخلَ غرفةَ التحقيق، كانوا يلاحقونه بنظراتهم وكأنه مجرمٌ خطير ..

طُرِحَ عليهِ أول سؤال من الضابط : ما اسمك ؟
فأجاب وطن: بعدَ مرور ستة أشهر، تسألني ما اسمك !!
فقابله الضابط بقولٍ خشن: أنتَ هُنا لتجيبَ على أسألتنا فقط، هذا هو المطلوبٌ منك، أفهمت !!!
فابتسمَ وطن وهزَّ برأسهِ بسخرية ونظرَ للضابط وقال: دائمًا نحن من يُطلب منّا الإجابة من دون أدنى اعتراض، ونحن من يجبُ علينا السكوت في عزّ ألمنا، ونحن من يتحمل دائمًا الذّل و الإهانة.
وأنتم لا تفعلونَ شيئًا سوى أنكم تزيدونَ في طُغيانكم ...
أعدلٌ هذا أن يقفَ أبناءُ البلدِ الواحدة ضد بعضهم ؟؟

بقيَ كل من في الغرفة صامتون، لا يعرفون ما هي الإجابةُ النموذجية التي تُسكِتُ وطن، لهذا السبب انهالوا عليه بالضرب المبرّح، وهو يزيدُ في كلامهِ ضدهم..
إلى أن نزف دمه من جديد ..
هذه المرة لم يشعر وطن بالألم المعتادِ الذي كانَ يشعرُ بهِ كلَّ مرة، وكأن جسدهُ تخدّر من شدة الضرب ولم يعد يشعر بشيءٍ قط إلا بحبه لشام..
أبقوهُ مرميًا ودمه قد شكَّلَ بحيرات صغيرة على الأرض.

فقال الضابط: غدًا سنحولهُ لأحدِ المراكزِ الأمنية، فلا جدوى من إبقائهِ هُنا.

ومن ثم تم حمله ورميه في الغرفة المشؤومة، وإبراهيم بجانبهِ يحاول التخفيفَ عنه، وهو لا يفعلُ شيئًا سوى أنه يتألم ويُنادي باسمِ شام...

بقيا طوال تلكَ الليلة على نفس الحال إلى أن طلعت الشمسُ عليهما فأيقظ إبراهيم وطن لصلاة الفجر التي تأخرا عليها بسبب تعبهما، فقام وطن والألم قد فتكَ بجسده، وتوضأ..

ووقفا للصلاة ...

بعد عدةِ دقائقَ انتهيا، وجلسا للاستغفار .

توجهَ إبراهيم بنظرهِ لوطن وناداه .

فردَ عليهِ وطن: نعم يا إبراهيم

إبراهيم: منذ مجيئكَ هُنا لم أرَ أحدًا سأل عنكَ من أهلك. أليس لك أهل ؟

وطن: بلا يا إبراهيم، لدي عائلة لكنهم لا يعرفونَ أنني هُنا، ولا أعلم إن عَرفوا بما حدث أم لا ..

لم يكن وطن على علمٍ بأنَّ أخاهُ محمد على علمٍ بكل شيء..

وطن: أيمكنني أن أطلبَ منكَ شيئًا يا إبراهيم ؟

إبراهيم : أكيد تفضل !!

وطن: آخرُ ما سمعتهُ البارحة أنه سيتمُ تحويلي لأيّ مركزٍ أمني اليوم
إبراهيم : صحيح هذا ما تم قوله البارحة
وطن: أرجوك دعني أُكمل
إبراهيم: تفضل
وطن: إن كنتُ سأخرجُ من هذا الباب إلى مستقبلٍ مجهولٍ أيضًا .. وكتبَ الله لك الخروج من هُنا إلى أحضانِ والدتك أرجوك حاول الوصول لبيتنا " وقد ذكر وطن أنه يسكنُ في العاصمةِ دمشق، وذكر عنوانهُ بالضبط لإبراهيم "
وحاول أيضًا أن تصل لمشفى ... " ذكر أيضًا اسم المشفى"، واسأل عن ممرضة تُدعى شام وقل لها: أنني أحبها ..
إبراهيم: توكل على الله. وثِق بي، سأصل لعائلتكَ ولشام بإذن الله، إن أَذِنَ الله لي بالخروج ..
وما إن حاول وطن النهوض، حتى فُتحَ بابُ الغرفةِ المشؤومة وقاموا بمناداة وطن للخارج، فخرج بقولهِ: أنا هُنا ..
وكانَ لا يقوى على المشي بشكلٍ طبيعي من شدّةِ الألم الذي يشعرُ به.
سمعَ صوتاً يقول: أحضروه..
التفتَ لإبراهيم وقال: انتبه لنفسك، ولا تنسى ما قلته لك..
وابتسم له قبل أن يُديرَ ظهره ..

قُفلَ بابُ الغرفة، فجلس إبراهيم يدعو الله أن يحمي وطن، ويأذن لهُ بالخروج ..

كم يبدو الأمر مُرعبًا يا عروة حين يؤخذُ أحدنا لطريقٍ مجهولٍ رُغماً عنه، لا يعرفُ إن كانت نهايتهُ حياة جديدة، أو موت ..
وكم من الوقتِ سيستغرقُ ليعرف ما الذي يحدثُ حوله ...
نحنُ مساكينٌ يا عروة، لدرجةِ أننا نقفُ أحيانًا مكتوفي الأيدي أمام ألمنا، منتظرين منهُ أن يكون حنوناً علينا ..
خرجوا من ذلك المبنى الذي قضى فيهِ وطن رفيقًا للألمِ والذلِ ستة أشهر، خرج من ذلكَ المبنى وهو معصوبُ العينين لكنه مطمئن؛ لأنه يعرف إلى أين سيذهب، ركبَ سيارة مع مجموعةٍ من الأشخاص، وعادت الأفكار تتخبطُ في رأسه، وكثيرٌ من الأسئلة ليس لها إجابة ...
تحركت السيارة، ومضوا في طريقهم إلى أقربِ مركزٍ أمني ..
خيَّمَ الصمتُ على الجميع طوال الطريق، تملَّكَ الخوف قلبَ وطن، بالرغم من أنه يعلم أن طريقهُ سينتهي في أحدِ المراكزِ الأمنية، لكن ما تهتمه ؟ ما الذي سيحدثُ بعد ذلك ؟؟
لا أحدَ يعلم ..

هناكَ أوقاتٌ تمرُ يا عروة تجعلنا واقفينَ في المنتصف، بين الخير والشر، القوة والضعف، الاطمئنان والخوف، الحب والكراهية، ولا قدرة لنا على مواجهةِ ما نمرُّ بهِ ....

شام تكملُ أعمالها المعتادة في المشفى، ولكنها تفكر فيما سمعت عن وطن، وتحاول البحث هنا وهناك عن أي شيءٍ يمكن أن تعرفه ليطمئنَّ قلبها ..
فذهبت للممرض أحمد في غرفة الممرضين وقالت له بعد أن ألقت عليهِ التحية: لو سمحت أحمد، هل يمكنني الحديث معكَ قليلاً..؟!
أحمد: تفضلي شام، ما الأمر ؟
شام: أودُّ أن أسألك عن الكلام الذي سمعته منكَ بخصوص الصحفيين الذين تم أخذهم من هنا، ممن سمعت الكلام الذي قلته لي ؟
أحمد: لقد سمعنا الكلام من صحفيين آخرين كانوا قد قدموا هنا في وقتِ إجازتك، قالوا لنا أنَّ الصحفيين الذين قدِموا إلى هنا، تم أخذهم بتهمةِ التجسس والعمل لصالح جماعات مخربة، وأنهم الآن مفقودون ولم يُعرَف عنهم أي شيء . هذا كلُّ ما حدث ..
شام: أرجوك أحمد إن سمعتَ أي شيء، أخبرني ..
أحمد: إن شاء الله يا شام..

شام: شكرًا أحمد، أستأذنك
أحمد: عفوًا، على الرحبِ والسعة
أدارت ظهرها له بعدَ ابتسامةٍ خفيفة، والتفتَتْ فإذ بطفلةٍ صغيرة تحملها أمها تبتسمُ لشام، فقابلتها بابتسامةٍ أيضًا، شعرت أن هذه الابتسامة قدمت لها القوة في ظِّل أن كل شيءٍ يدور حولها يدعو للضعف والانهيار ..
فأكملت طريقها في ممرِ المشفى وهي تحاكي نفسها وتقول: اللهم أخرجني من هذا التشتت، واجعل لي من كل ضيقٍ مخرجًا يا الله..
وفي نفسِ الوقت كان وطن يدعو ويقول: اللهم اجعل لي من كل مصيبةٍ مخرجًا....

ولا يعلمان أن كلَّ ما هو آتٍ هو خيرٌ لهما وإن كان عكس رغبتهما، وأن الله معنا مهما ابتعدنا عنه ..
بعد مرور 9 ساعاتٍ على وطن، التقت السيارة التي خرجت بهِ من ذلك المبنى هو ومن معه من الصحفيين بسيارة تابعةٍ لأحدِ المراكزِ الأمنية ويوجدُ بداخلها عناصر شرطة و ضابطٌ آخر، تمَّ إنزالهم وإجبارهم على الرُّكوب في السيارةِ التي يتواجدُ فيها عناصرُ الشرطة، وقاموا بالتوجهِ لأحدِ المراكزِ الأمنية.

هنا بدأت المعاناة الحقيقية في ظلِّ أنَّ التهمة الموجهة لوطن ثابتة ولا مجال للاحتمالات؛ لأن هُناك عُملاء ينقلون الأخبار، موثوقٌ بهم أكثر من الحلفانِ بالله جلَّ جلاله..

فليسَ بغريب أن الجهات التي يعمل لصالحها العملاء تثقُ بهم، ولا تحتمل أن يكون كلامهم كاذباً، أو أنهم ينقلون الأخبار فقط من أجل المال، فشيء طبيعي أن يفترون على غيرهم في سبيل المبالغ التي يتقاضونها مقابل أخبارِهم ..

رُميَ بوطن في زنزانة مع أشخاصٍ آخرين، كلٌّ منهم له تهمة مختلفة ..

أحدهم اسمه يوسف جلسَ بجانبِ وطن قائلًا : لمَ أتوا بكَ إلى هنا؟

وطن: لقد كنتُ في مكانٍ آخر لمدة ستة شهور، ومن ثمَّ أتوا بي إلى هنا ولا أعلم لمَ أتوا بي، وما الذي سيحصل !!

يوسف : إن شاء الله كل شيءٍ سيكون على ما يُرام ..

ومن ثمَّ أدار وطن ظهره وراحَ في نومٍ عميقٍ لأول مرةٍ منذ ستّة شهور؛ لأنها المرة الأولى التي يطمئنُّ فيها ..

في ظلِّ أنَّ شام كانَ الخوفُ قد فتكَ بها، وبدأت الأفكار تأكلُ من جمجمتها بلا رحمة، تعمل وتأكل وتنامُ بلا بالٍ مطمئن، بل تضيعُ في

متاهاتِ أسئلتها أكثر كلَّ يوم، وأهلُ وطن يشعرون بالنيرانِ تشتعلُ في قلوبهم من شدّةِ الخوف على ابنهم
بعد مرور سبعةِ أيامٍ فقط من خروج وطن لأحدِ المراكز بتهمةِ التجسسِ والخيانة، خرجَ إبراهيم الذي كانَ يمكثُ معه في تلكَ الغرفةِ المشؤومة ...
خرجَ وهناك أمانة بين يديه ويجب عليهِ إيصالها مهما كلفهُ الأمر .
خرجوا بهِ من ذلك المبنى ليرموا بهِ على جانب الطريق، ليبقى ماشيًا إلى أن يُشفقَ عليه أحدُ السائقين على الشارعِ الرئيسي..
إلى أن أوقفهُ أحدُ المارّين بسيارته، ليقاطعَ مشيه سائلًا: إلى أينَ تذهب ؟ ولمَ أنتَ هنا ؟
إبراهيم: قصةٌ طويلة لا يمكنُ شرحها الآن، أيمكنكَ أن تأخذني إلى أقربِ مكان؛ لأستقلَّ سيارة توصلني إلى بيتي؟
سائقُ السيارة: اصعد ..
وصعدَ إبراهيم للسيارة، كانَ فَرِحاً بعض الشيء؛ فقد أصبحَ حُرًا بعدَ أكثر من عامٍ في السجن ..
تُرى بمَ يشعر إبراهيم؟ بعد أن أصبحَ ملكَ نفسه..
يبدو أنهُ شعرَ أن هناكَ طعمٌ آخر لأشعةِ الشمسِ التي غابت عنه لعامٍ أو ربما أكثر يا عروة ، وشعر بنسماتِ الهواء تجري في شرايينهِ

بطريقةٍ مُرضيةٍ لقلبه..
وسعادته العارمة بذهابهِ لعائلته بعد الغياب ...
ما أصعب الغياب يا عروة، وما أجمل الرجوع ..
وكم هو مؤلمٌ انتظار وطن لأيّ أحدٍ يسأل عنه من أهلهِ أو ربما يأتي السؤال من شام ليعرفَ حينها أنَّ إبراهيم قد خرج، وكان عندَ حسنِ ظنه ..
وصلَ إبراهيم بعدَ مرور أربع ساعات إلى وسطِ العاصمةِ دمشق، حينها فقط شعرَ أن الكابوسَ قد انتهى، وأنه في أمانٍ بعيدًا عن كلَّ ما مرَّ به، وقف لمدة ينظرُ حولهُ يراقبُ ملامحَ الناس، أرصفةَ الشوارع، وغروبُ الشمسِ في دمشق ..
ومن ثمَّ استقل سيارة أُخرى واتجه إلى بيته .....

وطنْ يجلسُ في الزنزانةِ ينتظرُ أن يحدثَ أي شيء، وشام تحتلُ أفكارهُ وقلبه..
كم هو صعبٌ الانتظار يا عروة، أن تنتظر شيئًا لا يُعرفُ لهُ موعد، أن تعد الدقائق والثواني في ظلِّ أن الوقتَ يمرُ ببطءٍ شديد، وكأنَ الدقيقة تساوي عامًا أو ربما أكثر ...

وصلَ إبراهيم بيتهُ بعد عناءِ الطريق، ليدخلَ على أهلهِ ويُسلّم عليهم بحرارة بعد غياب، وعندما رأى أمهُ رمى بنفسهِ في أحضانها باكيًا، شاكيًا لها عن كلِّ ما مرَّ به ..

كانَت غُرفتهُ على حالها منذُ أن تركها، لكنها اختفلت قليلًا فهذهِ المرّة شعرَ بأنها جنة بالنسبة لكلِّ شيءٍ خارجها، وحمدَ الله كثيرًا على رجوعه، ورمى بنفسهِ في فراشهِ ليخرجَ في صباح اليومِ التالي ويسأل عن أهلِ وطن كما وعده ..

في تلكَ الليلة تحديدًا كانت شام في أحضانِ أمها وكانَ وطن متكورٌ في فراش الزنزانةِ البارد، يفكر كلٌّ منهما بالآخر، ويتمنى كلٌّ منهما لو يرى الآخر في أحلامهِ على الأقل ..

لكنني لا أعلمُ ما بالُ أحلامنا يا عروة، فمرةً تُحاكي الواقع فعلًا وتصفهُ لنا في نومنا بصورة مؤذية لنصحو خائفينَ فيُضافُ خوف جديد فوقَ خوفنا المعتاد الذي يعيشُ معنا، ومرةً تتشكَّلُ بصورة أمنياتنا فتأتينا بها بطريقةٍ تواسي قلوبنا ..

لكنَ الأصعب يكمنُ في صحوتنا من هذه الأحلام وعودتنا للمحاربة في واقعنا الأليم ..

رنَّ المنبهُ الساعة السابعة في صباحِ اليوم التالي، كانَ يومًا مختلفًا لإبراهيم، فهو انتظر سطوعَ الشمس بفارغ الصبر ليصل إلى أهل

وطن ويخبرهم عن ابنهم وما الذي حلَّ به، فلبسَ ملابسهُ سريعًا بعد أن سلَّمَ على أمهِ وطلب منها الدعاء له..

خرجَ من بيته متجهًا للعنوان الذي أعطاهُ إياهُ وطن، فاستقلَّ سيارة أُجرة لتنقلهُ للعنوان الذي يقصده..

تمَّ استدعاء وطن لغرفة التحقيق؛ ليتم التحقيق معه بما وُجِّهَ لهُ من تُهَم ...

لكنهُ لم يخف قط، شعرَ بأنَّ هناك أمرٌ ما سيحدث، قلبهُ ينبضُ بسرعة وتدور الأفكار في رأسه، وينتظر .....

أُخذَ لغرفةِ التحقيق، وحينَ دخل وجدَ وجوهًا جديدة لم يَراها من قبل، طلب منه الضابطُ المسؤول أن يجلس على الكرسي في زاوية الغرفة..

الضابط المسؤول: ما اسمك؟

وطن: اسمي وطن

الضابط المسؤول: عرفني بنفسك، قُل لي كل شيءٍ عنك !

وطن: ألا توجد معلوماتي الشخصية في الملفِ بين يديك؟

الضابط المسؤول: نعم موجودة

وطن: إذًا، لمَ تسألني ؟؟

الضابط المسؤول: أنتَ هُنا للإجابةِ فقط، ولا يُسمحُ لكَ بالحديث إن لم أسمح لك..

ضحك وطن وقال: بل قل لي أنت يا حضرةَ الضابط، هل يمكنُ للدولةِ أن تأكل أبنائها، وتودي بهم للهلاك ..؟
نظرَ لهُ الضابط باستغراب: ماذا تقصد؟
وطن: أنتَ تعرفُ تمامًا أننا كلنا بشر، ولا فرق بيننا إلّا بالتقوى، بأي حقٍّ تنتهكون حقوقنا، وأعراضنا ؟؟
الضابط: انتبه لكلامكَ يا أنت، ما الذي تقوله؟؟ نحن لم ننتهك حقوقكم، بل أنتم من لا ينفعُ معهم فعل الخير، والدليل أنك تعملُ لصالحِ جماعاتٍ مخربة، ولقبُ الصحفي الذي مُنحَ لك ما هو إلّا ستارٌ لأعمالٍ تخريبية ..
وطن: ألم يأتي لكم بعضٌ ممن يبيعون أبناء بلدهم ولو بالباطل، ليأخذوا بالمقابل مبالغ كبيرة، مقابل كذبهم وافترائهم ؟؟
الضابط: وماذا تقصد؟ نحن لا نسمعُ لأحدٍ قط، أنت مُتهم وهذا ما أتى بكَ إلى هُنا، فالأفضل أن تُجيبَ على أسئلتي فقط ..
وطن: تفضل ...
الضابط: أخبرني لأي جماعةٍ تعمل ؟ وما هو المقابل ؟
وطن: أعمل كصحفي لإحدى القنواتِ الفضائية، أنقل الأخبار بمصداقية وشفافيةٍ تامّة، ولا أفعلُ أي شيءٍ يُناقضُ ديني وشروط وظيفتي ..

ضحكَ الضابط وقال: ما أجملَ فلسفتكَ وما أقبحك.
وطن: لا أعلم ما هي الطريقةُ المناسبة لقول أنني بريء من كل ما نُسبَ إليّ، لكن الله هو الوحيد العليم الشاهدُ ...
سكتَ الضابط ولم يُرد، أشعلَ سيجارتهُ وأصبحَ يتمشى في الغرفةِ يفكر وينظرُ لوطن ...
تُرى كيف نستطيعُ إثبات وجهاتِ نظرنا يا عروة، وإقناع من هم حولنا بحسنِ نوايانا ؟؟
وهل إثباتُ براءة شخص من تهمة وِجّهَت له تكمنُ في صدقه؟ أم يمكن إثباتُ براءتهِ بالكذب والنفاق، كما وجّهَت له التهمة بالكذب والنفاق ؟؟
بعد مرور ثلاث ساعات من البحثِ المتواصل عَثَرَ إبراهيم على بيتِ وطن حسب العنوان المُعطى له..
طرق الباب بلهفةٍ وخوفٍ وسعادةٍ في آنٍ واحد، فُتحَ الباب فإذ بامرأةٍ كبيرة في السّن تقفُ عند الباب ..
إبراهيم: مرحباً، أَهنا بيتُ أبو محمد
فردت المرأة عليه: نعم هُنا، تفضل يا بُني، ماذا تُريد ؟
إبراهيم: إنني أودُّ مقابلة الخالة أم محمد ..
فردت عليه: نعم أنا أم محمد، هل من شيءٍ تبحثُ عنه ؟
إبراهيم: إنني جئتُ لكِ بأخبارٍ يا خالة، هل يمكنني الدخول ؟

- نعم تفضل..

دخلَ إبراهيم، فلم يجد أحدًا في البيت سوى أمٌّ وطن ورجلٌ كبيرٌ في السّن، وأطفالٌ صغار وبعضٌ من النسوة..

فجلسَ وهو ينظرُ للصورِ المعلقةِ على الجدران، فوجدَ صورة وطن، اطمئنَّ حينها وعرفَ أنه وصل للعنوان المطلوب..

فابتسم وهو ينظرُ لأبي محمد وقال: أأنتَ والدُ وطن ؟

فقالت له أم محمد والدموعُ تملأ عينيها: نعم يا بُني، وأنا أمُّه .

إبراهيم: جئتُ اليوم حاملًا لكما رسالة من وطن ..

ردَّ أبو محمد باستغراب: وطن؟؟ أين هو يا بُني ؟ إننا نبحثُ عنه منذ عامٍ وأكثر !! قيلَ لنا أنه توفي، وآخرون قالوا لنا أنهُ مفقود، كيفَ عرفتَ وطن؟ وأين رأيته ؟ وما الذي حصل له؟ وأين هو الآن ؟

إبراهيم: يا عم أبو محمد كُن صبورًا، سأقولُ لكما كلَّ شيء ..

أبو محمد: بسرعةٍ يا بُني، أرجوك قُل ..!!

إبراهيم: إنَّ ابنكما كانَ متواجدًا في أحدِ المشافي، في ذاكَ اليوم اقتحموا المشفى أشخاصٌ مجهولون قاموا بأخذِ وطن ومن كانوا معه، وبعدها أتوا بهِ لنفس المكان الذي كنتُ قد اعتقلتُ فيهِ لمدة عامٍ وأكثر، فُكنّا سويًا في ذاك المكان لمدةٍ طويلة..

قاطعهُ أبو محمد قائلًا: أبقيَ حيًا ..؟؟

إبراهيم: نعم يا عم ابنكَ حيٌّ يُرزَق الحمدلله، وقد تم تحويلهُ إلى أحدِ المراكزِ الأمنية منذ فترة، ولم أعرف عنهُ أي شيءٍ بعدها، وقد أوصاني أن آتي لكم وأطمئنُكم عليه..

أبو محمد: وما تهمته؟

إبراهيم: لا أعلم سوى أنهم اتهموهُ أنه يعمل لصالحِ جماعاتٍ مخربة.

أبو محمد: وطن لا يفعلُ أي فعل مُشين

إبراهيم: أعرف يا عم أبو محمد، لكنكم الآن يجبُ عليكم الاجتهاد في البحثِ عنه لتعرفون إلى أيّ مركزٍ أمنيٍّ قد حُوِّل..

أبو محمد: إن شاء الله يا بني سأخبرُ أولادي حينَ عودتهم من العمل، وبإذنِ الله سوف تُحل الأمور

وإنني أشكركَ على تعبكَ ومجيئكَ إلى هُنا ..

إبراهيم: لا تشكرني يا عم، فوطن ما كان إلّا إنسانًا يستحقُّ كل خير ..

أم محمد: سأدعو لكَ دائمًا في صلاتي.

ودموعُ الفرحة تملأ عينيها، وتنظرُ في وجهِ أبو محمد وتقول له: وطن حيّ يا أبو محمد، إنهُ حيّ، وجاءَ الصغار ليسألوا جدَّهم ماذا حدث، فقالَ لهم بصوتٍ فَرِح: إن عمَّكم وطن سيرجعُ قريبًا للبيت ..

فجأةً: سُمِعَ صوتُ زغاريدٍ تعبرُ عن فرحةِ أهل البيت بما قالهُ إبراهيم ..

وطلبوا منهُ البقاء ليجلس معهم على مائدةِ الغداء، لكنهُ اعتذر بسبب أعمالٍ أُخرى يجب عليه تأديتها، ووضع رقمَ هاتفِ منزله عند والد وطن بقوله: يا عم أبو محمد هذا رقمُ هاتفِ منزلي، أرجوك إن عرفتم أي شيء عن وطن قوموا بالاتصالِ بي ..

أبو محمد: إن شاء الله يا بُني ..

ودّعَ إبراهيم أهل وطن بحرارةٍ، وخرج من بيتهم وهو يبتسمُ ابتسامة المنتصر، الذي وصلَ إلى حلمهِ بعد تعب ..

عروة: تكمنُ الصداقة في المواقف أليسَ كذلك؟ أنا لا أسألكَ يا عروة، بل أؤكِدُ لك الأمر، فكم من أشخاصٍ دخلوا حياتنا لمدة قصيرة، سبقوا كثيرًا ممن سبقهم في حياتنا؛ بسب مواقفهم..

أذكر صديقكَ أحمد ذلك الذي كانَ موجودًا منذُ أولِ لقاء جمعَ بينكما أنتَ وهناء، إلى حينِ موتها، حينَ جاء لبيتكَ طالبًا منك أن تخرجَ معه ليحاول التخفيف عنك بأي طريقة، لكي لا تبقى وحيدًا تُصارعُ أفكاركَ وغياب هناء ..

أتذكر ؟؟؟؟

بعدَ خروج إبراهيم من بيت وطن أكمل طريقهُ قاصدًا المكان الذي تعملُ فيهِ شام؛ لرؤيتها وإيصالِ الأمانة التي أوكلهُ بها وطن .... استقلَّ سيارة أُجرة قاصدًا المشفى..

بعد إجابات وطن الغليظة بالنسبةِ للضابط، ما كان من الضابط إلّا أن يقفَ صامتًا أمام وطن وفلسفته الجميلة كما وصفها، يفكر ويسألُ نفسه: ما الذي يمكنُ فعلهُ ليعرف إن كانَ وطن مذنبًا أم لا !!!

قاطع وطن أفكارَ الضابطِ قائلًا: وصلتَ لحلٍّ ما؟ أم أنكَ ستلاقيني بالعذاب دون التأكدِ من برائتي؟

الضابط: ماذا تقصد؟

وطن: هل ستصدقُ من أتى لك وباعَ ابنَ بلدهِ بالباطل، مقابلَ مبالغَ طائلة ؟ أم أنكَ ستصدقُ من يحلفُ لكَ بالله الواحدِ الأحد أنه بريء ؟؟

الضابط: وهل كل من حلف بالله صادق ؟

وطن: تكمنُ العبرة في الخوف من الله، أي أننا نحلف بهِ لنثبتَ صدقنا، و لا نحلفُ به إلا عندما نكونُ صادقين فعلًا .. الضابط: وماذا عنك ؟

وطن: أُقسمُ بالله العلّي العظيم أنني بريءٌ مما أُتُهِمتُ به، وأنني أقومُ بعملي كأيّ صحفيّ يقومُ بتصويرِ كلَّ ما يحدث ..

سكتَ الضابط ولم يُجيب، بل طلب من عناصرِ الشرطةِ إعادتهُ إلى الزنزانة

فالتفتَ له وطن قبل الخروج من غرفةِ التحقيقِ بابتسامةٍ قائلًا له:
لا تنسى، أنَّ كل ما نقومُ به سنُحاسبَ عليه أمامَ الله ..
فما كان من أحدِ عناصرِ الشرطةِ إلا أن ضربهُ؛ لأنهُ تجرأ على الحديث بوقاحةٍ هكذا مع ضابطٍ كبير، وأخذوهُ إلى الزنزانة ...
كم يبدو إثباتُ الصدقِ أصعبُ بكثير من إثبات الكذب.....
بعد عناءٍ دام لساعتين وصلَ إبراهيم للمشفى، دخل باب المشفى مصدومًا مما يرى، فالأوضاعُ لا تهدأ أبدًا، بل تزدادُ سوءً لا يمكنُ تحمله ..
رآهُ الممرض أحمد، فسلّمَ عليه وقالَ له: أتَعاني من شيءٍ ما ؟
إبراهيم: لا لا، لا أعاني من أي شيءٍ، أنا فقط أودُّ السؤال عن ممرضةٍ تعمل هنا .
أحمد: ما اسمها ؟
إبراهيم: اسمها شام ..
أحمد: أَتُريدُ منها شيئًا ؟
إبراهيم: لا، إنه أمرٌ خاص، فلو سمحت أريد رؤيتها للضرورة .
أحمد: أعتذر منك، إنها في إجازة .
إبراهيم: ومتى تنتهي إجازتها ؟
أحمد: صدقًا لا أعلم، عُد غدًا لرؤيتها إن أردت ..

إبراهيم: حسنًا، شكرًا صديقي، سأعود غدًا أو بعدَ غدٍ إن شاء الله لرؤيتها..

أحمد: حسنًا ..

إبراهيم: إلى اللقاء .

وما إن التفتَ إبراهيم قاصدًا بابَ المشفى للخروج حتى حصلَ انفجارٌ جديد خلَّفَ الكثير من الجرحى، خرج إبراهيم مُسرعًا خائفًا وحزينًا، فقد خاب أملهُ في رؤيةِ شام ..

لكنهُ عاهدَ نفسهُ بالعودةِ مرارًا وتكرارًا إلى أن يرى شام ويوصل لها ما قاله له وطن..

كم هي صعبة خيبةُ الأمل حين نصل إلى ما نودُّ الوصول إليهِ وفي آخر لحظةٍ نعودُ وخيبة الأمل تتملكنا..

هو ذاته شعورُ شام، حين وصلت لطريقِ رجلٍ يحبها بصدق وفجأةً لم يعد موجودًا ..

إجازة شام، كانت إجازةُ مرض فالضغط النفسي التي تواجهه في العمل وبسبب تفكيرها المتواصل بوطن كانَ صعبًا جدًا، وبالرغم من ذلك تواجهُ كل ذلك وحدها دونَ مساعدةِ أحد، لكن والدتها كانت هي الوحيدة التي تشعرُ بما تواجهه ابنتها، وتحاولُ التخفيف عنها قدرَ الإمكان ..

كانت الحرارةُ قد تمكنت من جسدِ شام مصاحبةً للألمِ الشديد، وفي نفسِ الوقت كانت تسمعُ صوتَ وطن وهو يروي لها من الحديث ما يُرضي قلبها، ووالدتها لا تكفَّ عن الدعاء لها بالشفاء .. إلى أن رنَّ هاتفُ المنزل .

فردت والدةُ شام: آلو

أحمد: مرحبًا يا خالة، أنا أحمد زميل شام في العمل

والدة شام: أهلًا يا بني، تفضل

أحمد: اتصلتُ بقصدِ الاطمئنانِ على شام، هل هي بخير؟

والدة شام: إن شام مريضة يا بني

أحمد: يا إلهي، هل هي بخيرٍ الآن ؟؟

والدة شام: إن شاء الله ستكون بخير..

أحمد: إن شاء الله، سأعاودُ الاتصال لأطمئنَّ عليها فيما بعد، وإن احتجتِ أي شيءٍ أنا موجود بإذن الله

والدة شام: إن شاء الله يا بني، شكرًا لك

أحمد: العفو، إلى اللقاء

ودعت أم شام أحمد على الهاتف، وسمعت صوتُ شام وهي تناديها، ذهبت مسرعةً للجلوسِ بجانبِ شام فالحرارةُ في ازدياد، بقيت على هذا الحال لمدة ساعتين، إلى أن عاودَ أحمد الاتصال، وطلب الإذن من أم شام بالزيارة للاطمئنانِ على شام هو

وزملائهِ، فأعطته الموافقة على الزيارة، كانت شام تجلسُ في فراشها بعد نوبةِ ألمٍ قاسية مصاحبة للحرارة، وبدأت بالتحسن نوعًا ما..

أخبرتها أمها أن زملائها في المشفى يرغبونَ بزيارتها، ففرحت شام بهذا الخبر..

بعد الاتصال بساعة بالضبط، رنَّ جرسُ الباب، ففتحت أم شام وإذ بزملاء شام على الباب يطلبون الإذنَ بالدخول، لكن صدمتهم كانت حين شاهدوا شام بهذا الحال فلم تبدو باهتةً أبدًا من قبل، كانت دائمًا مُضيئة، مبتسمة، ومُبهِجة ..

أحمد: كيف حالكِ يا شام؟

شام: الحمد لله أنا بخير.

فبدأت الكلماتُ تقالُ على يمينِ شام ويسارها، فقد زارها أحمد ورهف ومروة وهُدى وزينب ورقية، وأوصلوا لها سلامًا حارًا ممن لم يستطيعوا القدوم..

رهف: إن الأطفالُ يفتقدونكِ يا شام وكلنا كذلك

زينب: صحيح كلام رهف، هناكَ شيءٌ ما ناقص في غيابكِ يا شام.

رقية: كوني بخيرٍ وعودي لنا بسرعةٍ يا شام ..

شام: مجيئكم لزيارتي يعني لي الكثير، إنكم كأخوتي، لستم فقط زملاء لي في العمل..

أحمد: شام، نسيتُ أن أخبركِ أن هناكُ شخصٌ سألَ عنكِ اليوم

أجابت شام باستغراب: ومن هذا الشخص يا أحمد؟ ألم يقل لكَ اسمه ؟ ولمَ يُريدني ؟ ألم يقل لكَ شيئًا ؟

أحمد: لم يقل أي شيء، فقط سألني عنكِ، وقال أنه يريدكِ لأمرٍ ضروري، فقلت لهُ أنكِ في إجازة، فقال لي أنه سيعود للسؤالِ عنكِ غدًا أو بعد غدٍ، هذا كل ما قاله ..

توارِدَ إلى ذهنِ شام الكثير من الأفكار، وأولها أنها يجبُ عليها معرفة هذا الشخص، ولمَ سأل عنها..

قاطع أحمدَ أفكارها قائلًا: ما بالكِ يا شام، نحنُ هنا، أينَ ذهبتِ بأفكارك ؟

شام: لا شيء يا أحمد، أنا بخيرٍ الآن، وغدًا بإذنِ الله سأكونُ بينكم في العمل ..

رهف: ما الذي تقولينهُ يا شام، أنتِ تحتاجين للراحةِ أكثر..

شام: لا تخافي يا رهف، كل شيءٍ على ما يُرام..

أحمد: نحن جئنا للاطمئنانِ عليكِ يا شام، الآن اسمحي لنا بالمغادرة، سنراكِ أن شاء الله في أحسنِ حال..

سلَّمَ الجميع على شام، وطلبوا الإذنَ للخروج..

وتُرِكت شام أسيرةَ أفكارها، من هذا الشخص الذي سألَ عنها؟ وماذا يريدُ منها؟ وهل هناكَ أمرٌ ما ضروري إلى الحد الذي منعهُ من البوحِ بما يريدُ لأحمد ؟

حاولت شام أن تكونَ هادئةً قدرَ المُستطاع، وأخبرت أمها أنها أصبحت في أحسنِ حال، وستذهبُ للعملِ في صباحِ اليوم التالي، لكن أمها كانت مستاءةً مما سمعت؛ لأنَّ شام ما زالت مُتعبة، لكنها لم تقل لها إلّا: كما تريدينَ يا ابنتي رغم أنني غيرُ راضية عن ذهابكِ للعمل وأنتِ بهذه الحالة

شام: لا تخافينَ يا أُمي أنا بخير، ألا تَرَيْن ..!

فقالت لها والدتها: دمتِ بخيرٍ يا ابنتي، وخرجت من غرفةِ شام لترتاح..

وهنا أصبحَ الوقتُ بطيئًا جدًا، أصبحت الدقائقُ سنوات، وشام تتقلبُ في فراشها منتظرة أن تشرق شمسُ الصباحِ لتذهب للمشفى وترى الرجل الذي سأل عنها، إلا أن أخذها النوم، وتسلَّلَ وطن مجددًا إلى أحلامها....

كم يبدو الأمرُ صعبًا يا عروة حينَ تسكن الأسئلةَ دواخلنا، ولا نجدُ لها الإجابةَ المناسبة؛ بسبب عدمِ معرفتنا بما يدور أو ما الذي سيحدث، والأصعبُ من هذا هو الانتظار، الانتظارُ الذي ينهشُ أجسادنا وأفكارنا بقسوة ...

نفس الشعورِ عاشهُ كلٌّ من وطن وشام، كلٌّ في فراشه، ينتظرانِ بعضهما، كلٌّ منهما يفكر بالآخر...

في صباح اليومِ التالي، استيقظت شام لصلاةِ الفجر، وبقيت مستيقظة ترتبُ أغراضها للخروج إلى المشفى باكرًا، واستيقظَ إبراهيم مبكرًا أيضًا؛ ليعاودَ الذهاب إلى المشفى للسؤال عن شام، واستيقظَ إسلام مبكرًا للسؤال عن وطن..

كانت الساعةُ الثامنة صباحاً، حينَ خرجَ كلٌّ منهم من بيته...

أمّا وطن فهو لا يعرفُ النومَ أبدًا ليستيقظَ مبكرًا، صلّى الفجر وبقيَ جالسًا إلى أن يحينُ فرجُ الله عليه..

وصلَت شام المشفى، استقبلها الجميعُ استقبالًا حارًا، ذهبت لغرفة الممرضات لتغيرَ ملابسها، وتبدأ بالعمل، حينَ وضعت ملابسها في خزانتها مرّت بأنظارها إلى أغراضِ وطن التي وضعتها منذ عامٍ وأكثر في خزانتها تنتظرُ عودته، تذكرت كل ما حدثَ بينهما منذ اللقاءِ الأول إلى حينِ أخذهِ من المشفى رغمًا عنه، شعرت بأنها تشتاقهُ كثيرًا، تشتاقُ لكلماته، صوته، ابتسامته، ولمعةُ الحُبِّ في عينيه..

لأولِ مرةٍ تُخرِجُ شام سُترةَ وطن من الخزانة لتراها، كانت رائحتها تحملُ من تفاصيلِ وطن، فاحتضنتها وابتسمت، أعادتها بهدوءٍ إلى الخزانة وأقفلتها، وخرجت من غرفةِ الممرضات قاصدة عملها، رغمَ أنها ما زالت مُتعبة نوعًا ما...

هل الاشتياقُ علامة من علاماتِ الحُبِّ القويِّ يا عروة ؟! هل التفكير بمن نحب، يمكِّنُنا من الشعورِ بهم ؟!كلها أسئلة لا أحدَ يَعرفُ إجابتها إلّا أنت، فأنتَ الذي جربتَ الحبَّ بمعناهُ الحقيقي، رغمَ خيانتكَ لهناء..

آسفة عروة على تذكيري الدائم لك بأنكَ خائن، لكنني وبالرغمِ من هذا أعرفُ تمامًا أنك أحببتَ هناء بكلِّ ما فيك، شعرتَ معها بالخوف، التردد، الاشتياق، اللهفة، الحزن، الفرح، الغياب، القُرب، الخيانة، وأكثر من ذلكَ بكثير، لهذا أنتَ الوحيد القادر على أن تجيب على كلِّ الأسئلةِ التي تُطرَح...

وصلَ إبراهيم المشفى في تمامِ الساعة الواحدة، دخلَ قاصدًا الاستقبال، فسأل أحد الموظفين عن شام، بمرور أحمد مجددًا فردَّ عليه السلام وقال له : هل عُدتَ مجددًا للسؤال عن الممرضةِ شام ؟!

إبراهيم : نعم، هل هي موجودة اليوم أم أنها في إجازةٍ أيضًا ؟

أحمد: لا إنها موجودة، انتظرني هُنا: لأناديها لك..

جلسَ إبراهيم على أحدِ الكراسي منتظرًا رجوعَ أحمد برفقةِ شام.

كانت شام في أحدِ غرفِ المرضى لتطمئنَّ على وضعهِ الصحي، فطلبت منه الارتياح إلى حينِ مرورها عليهِ مجددًا في المساء ،

وخرجت من الغرفة قاصدةً مريضًا آخر، وبينما كانت تمشي في أحدِ الممرات رآها أحمد، فقام بمناداتها : شام، شام ، انتظري
التفتَتْ شام له: ما بكَ يا أحمد ؟!
أحمد: الرجلُ الذي سألَ عنكِ بالأمس عادَ مجددًا يُريدُ رؤيتكِ..
شام: أينَ هو ؟!
أحمد: إنه يجلسُ في الاستقبال
شام: قل له أنني آتية، فقط أريدُ أن أُعطي مريضي جرعةَ الدواء.
أحمد: حسنًا نحنُ بانتظارك، لا تتأخري..
شام: حسنًا..
أكملت شام طريقها لغرفةِ المريض؛ لإعطائهِ الدواء، وقلبها يكادُ يخرج من مكانهِ من شدةِ التوتر والخوف ..
وصلت لغرفةِ المريض، أعطتهُ الدواء وخرجت مسرعةً قاصدةً قسمَ الاستقبال لترى من يسأل عنها ..!!
حينَ وصلت، رفعَ أحمد يدهُ مناديًا عليها لتنتبه إليه..
هُنا تحديدًا كلَّما اقتربت منهما كان الارتباكَ يتملكها أكثر...
شام: مرحبًا
أحمد: هذا هو الرجلُ الذي سأل عنكِ البارحة يا شام..
شام: شكرًا يا أحمد، مكملةً وهي تتجهُ بنظرها لإبراهيم: أهلًا وسهلًا.

فرحَّبَ بها إبراهيم قائلًا: أهلًا بك، مكملًا: أنا أتيتُ البارحة للسؤالِ عنكِ لأمرٍ هامٍ جدًا..

شام: نعم قالَ لي أحمد أنكَ سألتَ عنّي، ما اسمك ؟!

إبراهيم: أنا إبراهيم

شام: أهلًا بك، تفضل يا إبراهيم، قُل لي لمَ سألتَ عنّي ؟!

إبراهيم: أيمكننا الجلوسُ في مكانٍ هادئ لأتمكنَّ من الحديثِ معكِ ؟!

شام: أكيد تفضل معي إلى الكافيتريا لنتحدثَ سويًا

استأذنَ أحمد قائلًا: سأعودُ لعملي الآن، تشرفتُ بكَ يا إبراهيم

إبراهيم: وأنا أيضًا...

ذهبَ أحمد لإتمامِ عمله، وذهبا شام وإبراهيم إلى الكافيتريا للجلوسِ والتحدثِ كما طلبَ إبراهيم..

في ذاتِ الوقت، ذهبَ إسلام لمحمد في مكانِ عمله، بعد محاولاتٍ عديدة من الجميعِ للوصولِ إليه؛ لإخبارهِ بمجيءِ إبراهيم، وأنَّ وطن أصبحَ في أحدِ المراكزِ الأمنية لكن لا يعرفونَ أين ..

إسلام: صباح الخير يا محمد.

محمد: صباحُ الخير، ماذا تريد، لمَ جئتَ إلى هنا يا إسلام ؟

إسلام: لمَ لا تردُّ على اتصالاتنا ؟ حاولنا كثيرًا الاتصال بك، لكنكَ لم ترد...

محمد: قل ماذا تريد بسرعة يا إسلام، فلا وقت لديَّ للحديث.
إسلام: جاءَ رجلٌ لبيتنا يُدعى إبراهيم، أخبرنا أن وطن لا زالَ على قيدَ الحياة، وأنه يمكثُ في أحدِ المراكزِ الأمنية يا محمد، نُريدُ منكَ معرفةِ في أي مركزٍ أمني موجود لنتصرف، قبل تحويلهِ إلى أحدِ السجون ومن ثمَّ تحويلهِ للمحكمة.
محمد: قلتُ لكم ألفَ مرةٍ أنني لا أستطيعُ السؤال عنه .
إسلام: نفّذ أمرَ والدنا يا محمد
وخرج إسلام من مكتبِ محمد، دونَ أن يقولَ له وداعًا ..
قامَ محمد بعدَ ذلك بالاتصال بالذئب..
محمد: آلو.
الذئب: أهلًا.
محمد: لمَ لم تخبروني بأنه تمَّ تحويلُ الصحفيين للمراكزِ الأمنية ؟
الذئب: لقد جاءتنا أوامر مباشرة بتحويلهم فورًا .
أقفلَ محمد الهاتف بغضب، وقام باستخدامِ مصادرهِ لمعرفة أين يمكثُ وطن..
لم يتجه إسلام للبيت، بل خرجَ ليبحث عن وطن، استقلَّ سيارته وبدأ بالبحثِ بنفسهِ في المراكزِ الأمنيةِ التي يعرفها؛ ليسأل عن وطن ..

إلى أن وصل لأحدِ المراكز الأمنية، فنزلَ من سيارته ليسأل عن وطن..

رأى أحد عناصر الشرطة فألقى التحية عليه: السلام عليكم

ردَّ عليه الشرطي: وعليكم السلام، تفضل

إسلام: كيف يمكنني السؤال عن شخص معين، ومعرفةِ إن كانَ هُنا أو في مركزٍ أمنيٍّ آخر ؟!

الموظف: هل تعرفُ أي معلومات عنه؟! كاسمهِ الرباعي مثلًا!

إسلام: نعم أعرف اسمه الرباعي " زودَّ إسلام الشرطي باسم وطن الرباعي"

بعد ثوانٍ معدودة من إدخال الموظف لاسمِ وطن على الحاسوب، قال: نعم، هذا الشخص قد حُوِّلَ لأحد المراكزِ الأمنية منذ عدةِ أيام ، " ذكر الموظف اسمَ المركز لإسلام"

شكرهُ إسلام كثيرًا، وخرجَ من المركز فَرِحًا بما سمع، واستقلَّ سيارته ليذهبَ للبيتِ ويبشرَ أهله...

كم يبدو الأمرُ مفرحًا كثيرًا يا عروة، حينَ تعرف أن إنسانًا عزيزًا على قلبكَ ما زال حيًا بعد غيابٍ طالَ لسنوات، كما حصلَ معك بالضبط حينَ عاد أخاكَ سهيل بعد غيابٍ دامَ لسنواتٍ دونَ معرفةِ أسبابٍ مُقنعةٍ لهذا الغيابِ المفاجئ، أتذكر حينَ احتضنتهُ بحرارةٍ وكأنكَ تخافُ فقدانهُ مرّة أخرى ؟!

ها هو الشعورُ يتجسدُ مجددًا بإسلام، حينَ عرفَ أن أخاهُ ما زالَ على قيدِ الحياة...

بعدَ مرورِ عشرِ دقائقَ من جلوسِ شام وإبراهيم، طلبت شام الشايَ لإبراهيم، وقالت: قُل لي يا إبراهيم، لمَ سألتَ عني ؟! ومن أينَ تعرفني ؟!

إبراهيم: إنني جئتكِ بناءً على طلب شخصٍ يحبكِ يا شام..

شام: عفوًا! ماذا تقصد؟! ومن هذا الشخص ؟!

إبراهيم: الصحفي وطن!

حينَ سمعت شام اسمَ وطن، ارتبكتْ بشدّة، وسُجِنت الكلماتُ في حنجرتها، وغابت عن العالمِ لبضعِ ثوانٍ، ودقات قلبها تُسمعُ بشكلٍ واضح..

إبراهيم: ماذا بكِ يا شام ؟!

شام بصوتٍ خافت: أتعرفُ وطن ؟!

إبراهيم: نعم أعرفه، إنه كانَ صديقي في الاعتقال.

شام: أينَ هو الآن؟ وهل هو بخير ؟

إبراهيم: نعم إنه بخير، قد حُوِّلَ لأحدِ المراكزِ الأمنية منذ أيام ؟!

شام: لِمَ ؟!

إبراهيم: بتهمةِ العمل لصالحِ جماعاتٍ مخربة..

شام: وهل هذا صحيح ؟!

إبراهيم: كلّا ، وطن بريء..

عمَّ السكوت لثوانٍ معدودة وشام تُبحرُ في أفكارها، والخوفُ يأكلُ من روحها..

إبراهيم : اسمعيني يا شام، إنني جِئتكِ بناءً على طلبِ وطن، ففي فترةِ اعتقاله، كانَ كثيرًا ما ينطقُ اسمكِ، وينادي بهِ حينَ يعودُ من غرفةِ التحقيقِ معذّبًا وهو ينزفُ الدمّاء، كانَ يكلّمُ الله عنكِ في كلِّ سجدة..

بقيتْ شام صامتةً مصدومةً مما تسمع، أكملَ إبراهيم : جئتكِ لأقولَ لكِ أن وطن يحبكِ كثيرًا..

هطلت دموعُ شامٍ بهدوء، واتجهت بنظرها لإبراهيم وقالت: هوَ الذي قالَ لكَ ذلك ؟!

إبراهيم : نعم، وما خُفيَ داخلهُ أعظم...

شام: أتعرفُ في أيّ مركزٍ هو الآن ؟!

إبراهيم: كلّا ، إنني أنتظرُ اتصالًا من أهله، ليخبروني في أيّ مركزٍ يُقيمُ الآن..

شام: إن شاء الله، سأعطيكَ رقم هاتفي الشخصي، وعندما تعرفُ أيَّ شيءٍ عن وطن اتصل بي فورًا..

أعطت شام رقمَ هاتفها لإبراهيم منتظرةً منهُ مكالمةً ليخبرها عن وطن في حالِ معرفةِ أي معلوماتٍ عنه، ودَّعَ إبراهيم شام والتفتَ خارجًا من الكافيتريا قاصدًا بيته ...

هُنا شعرت شام بأن قلبها أصبحَ كآلةٍ للحب، لا يخرجُ منها سوى موسيقى جميلة تأسرُ كلَّ من سمعها، خرجتْ من الكافيتريا قاصدةً غرفةَ الممرضات وابتسامتها تُزينُ وجهها بطريقةٍ مختلفةٍ، جذابة ومثيرة، وحينَ وصلت الغرفة اتجهت بنظرها للخزانةِ التي تَحتوي أغراضَ وطن وفتحتها وأخرجت سُترته، أمسكتها بكلتا يديها كأنها تحادثهُ من خلالها عن كلِّ ما فيها من مشاعرٍ غير مرتبة...

شعورٌ لا يمكنُ وصفهُ يا عروة، حينَ تصلُ رسالةً من شخصٍ تحبه، رسالةً تُعيد الروح للرّوح، وتجعل في القلب أكوامًا من فرحٍ وأمان..

أتذكر شعوركَ حينَ كنتَ ذاهبًا لبيتِ أصدقائكَ أحمد وليلى، واستقبلتكَ هناء على الباب بابتسامةٍ وناولتكَ رسالةً منها وأنتَ أخدتها بكل سرور...

فكيفَ يبدو شعورُ شام حينَ وصلتها رسالة وطن !!

وصلَ إسلام لبيتِ أهلهِ ليُخبرَ أبواهُ أنَّ وطن بخير وأن كلَّ شيءٍ على ما يرام، وعرفَ في أي مركزٍ يُقيم، فخطر لذهنِ والده أن يتصل بإبراهيم ليُخبرهُ أنهم وجدوا وطن ..

اتصل به، الهاتف يرن، بعد ثوانٍ : آلو

إبراهيم: آلو، من معي ؟!
أبو محمد: أنا والدُ وطن يا إبراهيم
إبراهيم: أهلًا يا عم أبو محمد ، تفضل
أبو محمد: اليوم ذهبَ ولدي إسلام ليسألَ عن وطن، والحمدلله عرفَ في أيّ مركزٍ يُقيم وطن..
إبراهيم: الحمدلله، الحمدلله..
وأعطى أبو محمد إبراهيم اسم المركز الذي نقلَ إليه وطن ...
أقفلَ إبراهيم الهاتف والسعادة تغمره، فقد أوفى بوعدهِ لوطن وأن كل شيءٍ سيكون على ما يُرام..
بعد ذلك حاول إبراهيم الاتصال بشام، لكنها لم ترد..
كانت شام لم تصحو بعد من صدمة ما سمعت من إبراهيم، كانت تعملُ كالعادة وتزورُ المرضى لكن هذه المرّة بسعادةٍ وتوترٍ في آنٍ واحد، لا تعلمُ ما الذي تشعرُ به، شعورٌ لا يمكن تفسيرهُ ولا تصنيفه، تسألُ نفسها: هل علاماتُ الحُبِّ واضحة جدًا عليها ؟!
كانت متأكدة من شيءٍ واحد وهو أنَّ الرجل الذي كانت تحلمُ به موجودْ، ويحبها أيضًا ...
قلتُ لكَ يا عروة كيفَ تشعرُ الأنثى حينَ يعترضُ طريقها رجلٌ يحبها ويرغبها، ويريدها، وكم تكونُ سعيدة..

أنهت شام دوامها وخرجتْ من المشفى قاصدةً البيت، انتبهت لهاتفها فرأت أن هناكَ مكالمات فائتة من إبراهيم، فعاودت الاتصال به ..

إبراهيم: آلو

شام: أهلًا إبراهيم، كيف حالك؟!

إبراهيم: الحمدلله وأنتِ؟!

شام: الحمدلله ، أعتذر لم أنتبه لهاتفي؛ فقد كنتُ في عملي

إبراهيم: لا تعتذري، اتصلتُ بكِ لأخبركِ أننا عرفنا في أي مركزٍ يقيمُ وطن

سكتت شام لبضعِ ثوانٍ، لا تعلمُ ما هو الردُ المناسب لكنها كانت سعيدة جدًا ..

إبراهيم: آلو، آلو شام أينَ ذهبتِ ؟!

شام: هُنا إبراهيم، متى ستزورونه ؟!

إبراهيم: سأذهبُ غدًا لأزور أهله، ونرتب موعدًا لنزوره في السجن

شام: إبراهيم، أوصل سلامي له وقُل له أن شام تنتظرك ..

إبراهيم: إن شاء الله سأخبره، انتبهي لنفسك، إلى اللقاء

أقفلت شام الهاتف وهي تفكر بأنَّها ستراه مجددًا، ستسمعُ صوتهُ مجددًا، أكملت طريقها إلى المنزل وهي تنتظرُ على أحرِّ من الجمر أيُّ أخبار ستصلها عنه ..

ووطن أيضًا لا زالَ ينتظر، ينام ويصحو في فراشهِ في الزنزانةِ وهو يفكر بأهلهِ وشام، ولم يفكر قط بما سيؤولُ إليهِ أمره. فقط كانَ ينتظرَ تدخلًا من الله يُنجيه مما هو فيه ...

تلكَ الليلة تحديدًا يا عروة نامَ الجميع بطمأنينةٍ لا مثيل لها، كانت ليلةً هنيئةً لهم ومؤلمةً لوطن فهو لا يعلم ما الذي يحدث في الخارج، لكن كلٌّ من في الخارج كانوا ينتظرونَ الوقتَ المناسب ليرونهُ في أحسنِ حال، ويُحضّرونَ أنفسهم لصباحٍ جديدٍ يحتوي قليلًا من الفرح بعد أيامٍ مرّت بلغَ الضرر فيها ما بَلَغ ..

في صباحِ اليوم التالي، عند الساعة التاسعةِ خرجَ إسلام مجددًا ليُكمل ما بدأ به للوصولِ لوطن والتمكنِ من رؤيته، وفي نفسِ الوقتِ تمَّ استدعاءُ وطن لغرفة التحقيق؛ لإكمالِ استجوابه ...

فتحَ الشرطي باب الزنزانةِ قائلًا: أينَ وطن ؟

كانَ وطن على سجادةِ الصلاة، انتظرهُ الشرطي حتى انتهى من صلاته والتفتَ له وقال : نعم أنا وطن ..

الشرطي: الضابط يُريد رؤيتك ..

خرج وطن مع الشرطي، قاصدانِ غرفة التحقيق بناءً على طلبِ الضابط، وحينَ وصلا معًا ...

دخلَ وطن صامتًا، منتظرًا الإذنَ من الضابط ليجلس ..

نظرَ له الضابط وقالَ: اجلس يا وطن

فجلس وطن، قابلهُ الضابط قائلًا: كيف حالكَ يا وطن
فأجابه: الحمدلله، أنا بخير، طلبتَ رؤيتي يا حضرةَ الضابط !!
الضابط: نعم، طلبتُ رؤيتكَ لنكملَ حديثنا ..
وطن: تفضل ...
الضابط: قل لي يا وطن ألم تُغير رأيك في الاعتراف ؟؟
وطن: أأعترفُ بشيءٍ لم أقم بفعله ؟؟
الضابط: الكثير من المذنبون لا يعترفون بما فعلوا
وطن: أنا لستُ مُذنبًا
قالَ الضابطُ بغضب: أنا الآن أتكلمُ معكَ بالحُسنى، ولا تُجبرني بأسلوبكَ هذا على تحويلكَ لغرفةِ تحقيقٍ أصعب لتعترف ..!
وطن: وهل الاعترافُ بذنبٍ لم نفعلهُ يُنقذنا من التعذيب ؟؟
الضابط: أنتَ مذنب يا وطن، وكل الأدلةِ ضدّك، فلا تحاول تبرئةَ نفسك ..
وطن: إذن اجعلني ممن دخلوا غرفةَ التحقيقِ التي ذكرت، فلن أبررَ أبدًا، ولن أعترف بشيءٍ لم أقم بفعله ...
ازداد غضبُ الضابط وطلب من عناصرِ الشرطة أخذه إلى غرفة التحقيق التي يتم فيها استجواب المساجين، وهذا ما حدث، أخذهُ خمسة من عناصر الشرطة ورموا بهِ في تلكَ الغرفة..

كانت الساعة الحادية عشرة، عادَ إسلام لنفسِ المركز الأمني، حاولَ رؤية وطن لكنه مُنعَ من ذلك، فجلسَ على أحدِ الكراسي في الممرِ المؤدي للبابِ الخارجي للمركزِ الأمني، مُتعبًا، حزينًا، فاقدًا للأمل، كيف له أن يصل لوطن ؟؟ وكيف سيعودُ للبيت، وماذا سيقولُ لوالديه؟؟ باغتَ أفكارهُ شخصٌ قائلًا: ماذا بكَ يا صديقي؟، رأيتك منذُ الصباحُ تذهبُ هنا وهناك ، ماذا بك؟ هل تبحثُ عن شيءٍ ما؟ أيمكنني مساعدتك ؟؟

ردَّ إسلام بصوتٍ حزين: إنَّ لي أخاً غائبًا عنّا منذ عامٍ وأكثر، وجاءنا خبرٌ عنه أنَّ تم إحضارهُ إلى هنا، وكنتُ أحاولُ السؤال عنه، لكنني لم أصل إلى أيِّ حل ، فماذا عسايَ أن أفعل ؟؟ ووالداي، ماذا سأقول لهم ؟ و.....

قاطعهُ قائلًا: أنا اسمي إسماعيل، أعملُ ككاتبٍ في المحكمة .

إسلام: أهلًا إسماعيل، وأنا إسلام ..

إسماعيل: أعطني اسم أخيكَ الرباعي يا إسلام، وبإذنِ الله سأحاول فعل شيء يَسمحُ لكم برؤيته ..

نظرَ إسلام لإسماعيل باستغراب، فضحكَ إسماعيل وقال: لا تخَف، فلا أريدُ منكَ أيُّ مقابل، فقط أجبني، هل أخوكَ بريء؟

إسلام: نعم، أنا مُتأكد من براءته، أخي بعيدٌ كلُّ البعدِ عن أيِّ شُبهات

إسماعيل: وماذا يعمل ؟
إسلام: صحفي " وذكر إسلام اسمَ المحطة التي يعمل وطن لصالحها "

إسماعيل: اذهب أنتَ إلى بيتك يا إسلام، واترك لي رقم هاتفك، وسأتصلُ بك..
تركَ إسلام رقم هاتفهِ لإسماعيل، وخرجَ من المركز قاصدًا البيت، منتظرًا أن يتصل به إسماعيل ...
عروة: في سنواتِ حياتي لم يمرَّ عليَّ أحدٌ يقدمُ مساعدةً دونَ مُقابل، كلهم يفضّلون مصالحهم الشخصية، فقليلًا ما أجدُ أشخاصًا يساعدونَ غيرهم دونَ أيّ مقابل، لكن الله إذا أراد أمرًا هيأ لهُ أسبابه وأزالَ عواقبه، وهذا ما حصلَ مع إسلام، يسر الله لهُ من يساعده ...
بعد مرور ثلاث ساعات ووطن ينتظر، دخلَ أربعُ ضُبّاط للتحقيقِ معه، وهنا بدأت المجزرة، كانَ وطن خافضاً رأسه ولا يسمحُ لهُ برفعهِ أبدًا ..
فقد قال له أحدهم" الضابط رقم 202" : قف ولا تجلس أبدًا إلى أن أعطيكَ الإذنَ بالجلوس؛ فأنتم لا تستحقونَ الاحترام، ما اسمكَ يا هذا ؟
وطن: اسمي وطن

الضابط رقم 202: ضحكَ بسخرية وقال: وطن؟ أتعرفُ الوطن يا خائن؟

ردَّ وطن: أعرفه جيدًا ..

الضابط رقم 202 : وماذا تعرف عنه ؟

وطن: أعرفُ أنه أمانة في أعناقنا جميعًا، ولا يحقُّ لنا أن نخونَ عهده، وأنَّ من خانَ الوطن ليسَ من أبنائه، تمامًا كمن أتى لكم باتهامٍ وجَّههُ لي، مقابلَ مبالغَ طائلة وإن كان كذبًا وافتراء ..

الضابط رقم 202: اصمُت أيها الحقير، فلم يأتِ أحدٌ لنا بأخبارٍ عنك، أنتَ خائن للوطن والهوية..

وطن وقد صرخ بأعلى صوته: أنا لستُ خائنًا، لستُ خائنًا ..

ركلَ الضابط وطن في بطنهِ ركلةً جعلتهُ يصرخُ من شدّة الألم، وأعادها مرةً ثانية وثالثة إلى أن وقع وطن أرضًا ولم يعد قادراً على الوقوف ..

كانا الضابطان الموجودان أيضًا يقفانِ متفرجانِ على ما يحصل لوطن، لم يحركا ساكنًا وكأنَّ الذي يُضرب أمامها ما هو إلّا بهيمة من البهائم، لا يشعر، حلالٌ ضربه..

ابتعدَ الضابط رقم 202 عن وطن، وقد مسحَ الدم عن وجهه، وتركَ وطن مرميًا أرضًا يتألم، وقال لهُ: انهض أيها الحقير ..

فلم ينهض وطن من شدة الألم، فأعادَ عليه ذات الكلمة: قُلتُ لكَ انهض، وقد ركلهُ مرةً أخرى ..

ثمَّ نطقَ الضابط رقم 202 اسم محمد، حينَ قال له: يا حضرةَ الضابط، إنَّ هذا الحقير خائن وتهمتهُ لا تُغتفر.. أليسَ كذلك؟

فبقي محمد صامتًا، أعادَ عليهِ الضابط السؤال مرة أخرى، فقالَ لهُ محمد: نعم صحيح .

إنهُ صوتُ محمد، صوتُ أخي!! هذا ما تحدثَّ بهِ وطن لنفسه، ثمَّ رفع رأسه، وإذ بهِ يرى أخاهُ محمد !!!!!!

لم يُعطِ أيَّ ردةِ فعلٍ على ما رأى، لكنه تفاجأ من صمتِ محمد...

أجبرَ وطن نفسهُ على النهوض بالرغم من ألم عظامهِ وبطنه من الضرب المبرّح، وقد نهض في نهاية الأمر ..

وقفَ أمام الضابط وقال له: هل البريء يُفعَلُ بهِ كلَّ هذا فقط لأنه قال أنا لستُ مُذنبًا ؟؟

الضابط 202: لا، أنتَ مُذنبٌ فعلًا ..

قاطعهُ الضابط رقم 102: نعم أنتَ مذنبٌ يا وطن، وتعملُ لصالحِ إحدى الجماعاتِ المخرّبة، وتنقلُ أخبارًا لا يصرّحُ لكَ بنقلها.

وطن: وهل من دليل على إدانتي؟ أم أنكم تبرّئونَ من تريدون، وتحملّون الذنوب والتُهم لمن تريدون ؟ وما إن انتهى وطن من كلامه حتى اجتمعا عليهِ الضابطان وبقيا يركلانهِ بأرجلهم بشكلٍ

متواصل، ووطن يصرخ بأعلى صوته، ومحمد لم يفعل أي شيءٍ قط ...

نادى محمد عناصر الشرطة قائلًا: خذوهُ إلى الزنزانة

حملهُ عناصرُ الشرطة ورموا بهِ في الزنزانة ...

ارتمى وطن أرضًا من الألم، فجاء يوسف ساعدهُ للوصول إلى فراشه ومسحَ عن وجهه الدماء، وقال له: لماذا فعلوا بكَ هكذا يا وطن ؟

فلم يُجِبه، وقال له : غطِّني يا يوسف ..

وهذا ما فعلهُ يوسف، فقد غطّى وطن بغطاءٍ سميك، وبقي جالسًا بجانبه..

يحاولُ وطن تكذيب ما رأى، لم ينصدم قط من أي شيءٍ حدث، لكن تمثَّلت صدمته بأخيهِ الذي وقف متفرجًا عليه.

عروة، أنتَ تعرفُ مقولة متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، فكيف إن كانَ المتجبرُ أحدُ إخوتك ؟؟

لماذا لا يُطبّقُ مبدأ عمر الفاروق في أيامنا هذه؟

لماذا لم يتم التحقيق مع وطن بطريقةٍ هادئة؟ لماذا ضُربَ وأُهين؟ لأنه ضعيف؟ أم لأنَّ بعض الأشخاصُ يظنونَ بمناصبهم أنَّ من حقهم أن يدوسوا على غيرهم ببساطة !! وكأنَّ جميعُ من هم أقلُ منهم بالمناصب ما هم إلّا بهائم تُباعُ وتُشترى وتُضرب وتُهان ولا يحقُ لها الاعتراض أو التألم حتى ..

عادَ إسلام إلى البيت، منتظرًا من إسماعيل أن يهاتفه بشأنِ وطن، وما أصعبَ الانتظار يا عروة ..

خرجَ الضُباط من غرفة الاستجواب كلٌّ إلى عمله، ذهبَ الضابط رقم 404 ، الذي تملكتهُ الشفقة على وطن، إلى غرفةِ الضابط المسؤول ..

الضابط رقم 404 : احترامي سيدي هل تسمحُ لي بالدخول ؟

الضابط المسؤول: تفضل.

الضابط رقم 404 : يا حضرةَ الضابط، أتيتُ إلى هُنا لأقول لكَ أن الصحفي وطن قد ضُربَ بشكلٍ وحشي، ويُصرُ على براءته بالرغم من كل الضغوطات التي تُمارَسُ ضدّه.

الضابط المسؤول: أشعرُ أنه بريءٌ حقًا؛ فإصراره على براءتهِ غريب، ولا يوجدُ مُذنبٌ فعلًا يُدافعُ عن نفسهِ بطريقةٍ شرسةٍ كوطن ..

طُرقَ باب الغرفة، وإذ بأحدِ عناصرِ الشرطة يطلب الإذنَ لدخولِ كاتب المحكمة، فسمحَ له الضابطِ المسؤول بالدخول.

إسماعيل: احترامي

الضابط المسؤول: تفضل يا إسماعيل ..

قد كانَ إسماعيل كاتبُ المحكمة معروفًا لجميعِ الضُباطِ الذين يترددونَ إلى المحكمة؛ لرؤيةِ القاضي ..

إسماعيل: أودُّ التحدثَ معكَ في موضوع..
وقفَ الضابط رقم 404 قائلًا: أنا أستأذن سيدي، وقد حملَ ملف قضية وطن لأخذهِ معه، بالصدفة نظرَ إسماعيل للملف فشاهدَ اسم وطن الرُّباعي.. فعرفَ أنه وصلَ للضابطِ المسؤولِ عن قضيةِ وطن ..
خرج الضابط رقم 404، بعدَ إلقاءِ التحية ..
الضابط المسؤول: تفضل يا إسماعيل، ما الذي تودُّ قوله ..
إسماعيل: سيدي كنتُ أودُّ السؤالَ عن شخص قد سُجنَ هنا منذ فترةٍ ليست بطويلة، ولولا أنني متأكد من براءته، لا أكلفُ نفسي بالسؤالِ عنه ..
الضابط المسؤول: وما هو اسمه ؟
ذكر إسماعيل اسم وطن الرباعي للضابط المسؤول، فظهر الاستغرابُ على ملامحِ الضابط، وقال: ومن أينَ تعرفُ وطن؟ وما الذي أدراكَ أنهُ بريءٌ من تهمته ؟؟
إسماعيل: رأيتُ أخاهُ هنا، يبحثُ عنه ويحاولُ رؤيته، لكن لم يُسمح له، لا يعرفونَ عنهُ أيَّ شيء منذ عامٍ وأكثر ..
الضابط المسؤول: وطن الآن يتم التحقيق معه ..
إسماعيل: وهل يمكن لأهلهِ أن يقوموا بزيارته؟

الضابط المسؤول: سأدرسُ الوضعَ أولًا، إن كان يسمحُ بزيارتهِ أم لا ...

فردَّ إسماعيل بابتسامة: حسنًا، سأعود مرةً أخرى لزيارتكَ إن سمحتَ لي..

الضابط المسؤول: إن شاء الله

ألقى إسماعيل التحية على الضابطِ المسؤول وخرجَ مُسرعًا، أخرجَ هاتفهُ من جيبه وقام بالاتصالِ بإسلام

إسلام: آلو

إسماعيل: كيف حالكَ يا إسلام ؟

إسلام: الحمدلله، من معي ؟

إسماعيل: أنا إسماعيل كاتبُ المحكمةِ يا إسلام، هل نسيتني ؟؟

إسلام: نعم نعم، تذكرتكَ يا إسماعيل، تفضل ، هل هناكَ أمرٌ ما ؟؟

إسماعيل: نعم يا إسلام، فقد عرفتُ الضابط المسؤول عن قضية أخيكَ وطن، وتكلمتُ معه، وطلبتُ منهُ أن تقوموا بزيارته لكنكم ستنتظرون قليلًا من الوقت .

صرخَ إسلام من فرحهِ على الهاتف وقال: جزاكَ الله كل خيرٍ يا إسماعيل، شكرًا شكرًا لك، لا أعلم كيف سأشكرك..

وأقفلَ إسلام الخط، وذهبَ مسرعًا لأبيهِ فرآهُ يصلي، حينَ سلَّم أبوه و نظر إليه وقال: ما بكَ يا إسلام ؟ لماذا كل هذا الصراخ ؟
إسلام: الآن وصلني إتصالٌ مُفرح، فقد عرفتُ بأي سجنٍ يقيمُ وطن، وسنزورهُ قريبًا بإذن الله ..
وحضنَ أباهُ بفرحٍ ولهفة، وأخبرَ أمه وإخوته ..
والحرارةُ تسري في عروقِ وطن، طريحَ الفراش يتألمُ ويصرخ، وهلوساتٌ ترنُّ في أذنِ يوسف وهو جالس بجانبه: ما بين المناداةِ باسم شام، وبين قول: أنا لستُ مُذنبًا
ويحاول يوسف التخفيف عنه ..
عروة: لا أعلم إن كانَ الألمُ سيموتُ يومًا ما؟ لكنني أعلم أنه يمكننا أخذُ قسطٍ من الراحة بين كل نوبةِ ألمٍ وأخرى ...
بعد مرور ساعة ونصف من محاولةِ أبي محمد من الاتصالِ بإبراهيم، طلب من إسلام الاتصال بهِ لمرة أخرى لعلَّ وعسى يرد على مكالمته، ليخبره بما حدث ... ففعلَ إسلام
ردَّ إبراهيم أخيرًا: آلو
أعطى إسلام الهاتفَ لوالده، ليتكلم مع إبراهيم
أبو محمد: آلو، أين أنت يا إبراهيم إننا نحاول الاتصال بكَ منذ ساعة وأكثر ..
إبراهيم: أعتذر يا عم أبو محمد، لكنني لم أنتبه للهاتف ..

أبو محمد: لا تعتذر، وددتُ أن أخبركَ أننا سنزور وطن بعد وقتٍ قصيرٍ بإذنِ الله..

إبراهيم: حمدًا لله، أسعدتني بهذا الخبر يا عم، لكن إن ذهبتم لزيارته أخبروني لأذهبَ معكم .

أبو محمد: إن شاء الله ..

وأُقفلَ الخط، لم ينتظر إبراهيم أبدًا؛ فقد بعثَ رسالة نصية لشام، كتبَ فيها :

" مرحبًا شام، وددتُ إخبارِكِ أن وطن بخير، وسأخبركِ حين نذهبُ لزيارته"

لم يعاود أبو محمد الاتصال بمحمد؛ لأنه فقدَ الأملَ منه بأن يأتي لهم بأخبارٍ عن وطن..

كانت شام في طريقها إلى البيت بعد يومٍ طويل من العمل، مُتعبة، حينَ قرأت الرسالة شعرت وكأنَّ التعب الذي يسكنُ جسدها قد تبخر، وابتسمت ابتسامةً وكأنَّ حلمها اقتربَ منها .

ها قد مرّت عليهم ليلةً هنيئةً أخرى يا عروة، ما أجمل الشعور حينَ يخلدُ الإنسانُ إلى النوم وهو مطمئنٌّ القلب ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط.

لكن من يُنقذُ وطن من الجحيم الذي يعيشهُ كل يومٍ بين أسئلةٍ مُتعبةٍ عن أخيهِ محمد، وبما يعيشهُ كل يوم هو ومن معه؟! يقولونَ أن الخائنينَ كُثُر، ما ذنبُ وطن ومن معه بكثرةِ بائعي الوطن ؟! إن كانَ هناكَ قلوبٌ لا تعرفُ إلّا القسوةَ والضغينة، وضمائرٌ ماتت منذُ زمنٍ بعيد، وامتلأَ الوطنُ بشاربي الخمر على جثثِ المساكينِ والضعفاء، وضحكات السُخرية ممن بقيَ رَجلًا لا يركَعُ أمامَ امرأة باتت تهربُ من أحضانِ رجلٍ لآخر، إنه المُضحكُ المبكي يا عروة.. كم يبدو الأمرُ مُحزنًا حينَ يقعُ الوطن بين أيدي من قتلوا ونهبوا وسرقوا وظلموا، ولا قدرةَ لأحدٍ على تحريرهِ قط!!

يشعرُ وطن ومن معه أن الزنزانةَ بعتمتها وقلة الأكسجينَ فيها وغياب أشعة الشمس، ورائحة الخيبات التي تملؤها، تُطبِقُ على صدورهم، كمن ينام ويصحو على نفسهِ مكبلًا، ينام على سريرٍ قديمٍ يملؤهُ الصدى، وأطرافُ هذا السرير تُغرَزُ في جسدهِ فينزفُ دمًا..

يذوقونَ الأمرّين، وتمرُّ عليهم الساعات وكأنها أعوام، منهم من يُضرَب ويُشرَبُ عندَ رأسهِ كأسًا من دمائهِ، ومنهم من يُهانُ ويصمت، وفي عينيهِ دموعٌ أحرقت جفنيه؛ فلا قدرةَ لهُ على الرَّدِ حينَ تُشتَمُ أمه، فقطْ يعضُّ شفتيه حتى ينزفنَ دمًا ثأرًا لأمهِ التي شُتمت...

وغُرفٌ فُتِحت لضحايا التعذيب الذين سُلِخَت جلودهم، وفُقِئت أعينهم، ومن خَسرِ أحد أعضائه ولم يعد قادراً على الحركة نهائيًا من شدةِ التعذيب، وغيرهم الكثير، وفي كلِّ مرةٍ يظنونَ أن كلَّ شيءٍ قد انتهى، لكن فجأة يتضحُ أنهم في بدايةِ طريقِ الألمِ، وحينَ يَخرجُ أحدٌ منهم من بين الجدرانِ المتعفنةِ من رائحةِ الدمّاء يشعرونَ أنَّهم تنفسوا قليلًا بخروجه، ويختنقونَ أكثر عندما تُسجنُ أرواحٌ جديدة لم تعتاد على الألم، ولا تعلمُ ماذا ينتظرها...

عروة: كم يبدو الأمرُ صعب التصورِ حينَ يبكي الرجال، وحينَ يُضربون، وحينَ تُشتمُ أمهاتهم، وعندما يتملكهم الضعفُ رُغمًا عنهم ...

هل من مُنقذٍ لكلِّ هؤلاء ؟! أم لا مجالَ للخلاصِ سوى الموت ؟! وإن كانَ أجلهم قد تأخر، هل سيبقونَ هكذا طوالَ حياتهم ؟! حياتهم المشؤومة التي لا حريةَ فيها ولا كرامة، ضائعة بينَ حلمِ الخروج من السجن أو الموتُ للخلاص...

ومتى سيموت بائعو الوطن؟! أو متى سيكفّونَ عن بيعِ أبناءِ وطنهم مقابل مبالغ ستنتهي عاجلًا أم آجلًا ... ؟!

أتدركُ معنى أن يأكل أبناءُ الوطنِ الواحدِ بعضهم يا عروة ؟! وأن يكره الأخ أخاه؟ أتدرك معنى أن يدوس من هم في مناصب عُليا

في الدولة على المساكين ؟! وهل تدرك أيضًا أنَّ صعوبةَ الموقفِ تكمن بأنهُ لا يوجد من يردعهم عن كلِّ ما يفعلونه ؟!
عروة، لا أعلمُ ما الذي يجبُ قوله أكثرُ من هذا، ولا أعلمُ كيفَ يمكن أن أنتهي من كلامي هذا بطريقةٍ مُبشّرة، في ظلِّ أن كلَّ شيءٍ مُخيبٍ للآمال...
بعد مرورِ شهر كامل من الانتظار، ومحاولاتِ إسماعيل بإقناعِ الضابطِ المسؤول بالسماحِ لأهلِ وطن بزيارته، وافقَ الضابط المسؤول بعد أن اكتشفَ أن هناكَ واحدًا من الضُباطِ الثلاثة الذين قاموا باستجواب وطن متواطئًا مع جماعةٍ مخربة قاموا باختطافِ وطن بناءً على رغبته بعدَ حادثةٍ قام فيها بعضُ الصحفيين ومن ضمنهم وطن بكشف حقيقةِ بعضِ رجالِ الدولة وما يسعونَ إليه من خراب في سوريا، ومخططاتهم لإجراء عملياتٍ تخريبيةٍ في دمشق ومحافظاتٍ أُخرى، فاختُطِفَ وطن ومن كانَ معهُ في تلكَ الحادثة لتلفيقِ التهم لهم والانتقام منهم بعد فعلتهم بفضحِ رجالِ الدولةِ الخائنين، لكن بقيَ منهم لم يُفتضحُ أمرهم بعد..

فقدوا الأمل، ظنوا أهل وطن أنهُ انتهى الأمرُ بأسوأ حالٍ بعد غيابِ إسماعيل لشهرٍ كامل ...

كانَ التاريخ 2013/8/15 عند الساعةِ العاشرةِ صباحًا حينَ بعثَ إسماعيل برسالةٍ نصية لإسلام، محتواها أنه تمَّ السماح لهم بزيارة وطن بعد يومين بالضبط من تاريخِ إرسالِ الرسالة..
وذكر إسماعيلِ في الرسالةِ مكانِ التقائهِ بأهلِ وطن وكيفيةِ ترتيب الزيارة..
فما كانَ من إسلام إلّا أن أخبرَ والديهِ بما حدث، فاتصل أبو محمد بإبراهيم لإخبارهِ بكافةِ التفاصيل...
كانتْ شام أيضًا قد فقدت الأملَ كُليًا، وافترضت الأسوأ أنَّ وطن تراجعَ عن كلِّ ما بعثهُ لها على لسانِ إبراهيم، أو ربما هناكَ أمرٌ جلل قد حدث، كانتْ تعمل بغيرِ روح، تصحو باكرًا تذهبُ لعملها، وترجعُ للبيت ترمي بنفسها في فراشها دونَ أيِّ ردةِ فعلٍ تُذكر...
إلّا أن قام إبراهيم بالاتصال بها بعد مرورِ شهرٍ كامل...
رنَّ هاتفها وهي ترتبُ ملفاتِ المرضى قبل انتهاءِ دوامها في المشفى، كانت الساعة قد قاربت على الثامنةِ مساء، نظرت لشاشةِ الهاتف، عندما رأت اسمَ إبراهيم ردّت بسرعةِ البرق ..
شام: آلو
إبراهيم: كيف حالكِ يا شام ؟!

شام: الحمدلله وأنت، أهناكَ شيءٌ يا إبراهيم ؟! ما سبب اتصالكَ الآن ؟! وما سببُ غيابك كلَّ هذه الأيام ؟!

إبراهيم: أمهليني قليلًا لأشرحَ لكِ يا شام، لا تكوني عجولةً هكذا !! كانَ سببُ غيابي يا شام هو أننا لم نعرف شيئًا عن وطن طوالَ هذه الفترة، لكن في صباحِ اليوم اتصلَ بي والدُ وطن، وقالَ لي أنَّهم سيقومونَ بزيارةِ وطن بعد يومين، وسأذهبُ معهم لرؤيته..

شام: أحقّاً يا إبراهيم ستذهبونَ لرؤيته ؟؟؟؟

إبراهيم: نعم، واتصلتُ بكِ لأخبركِ بما حدث..

شام: حسنًا يا إبراهيم، أيمكنني إيصالُ رسالةٍ معكَ لوطن، إن استطعتَ إعطائهُ إياها سأكونُ ممنونةً لك

إبراهيم: حسنًا، سأمرُّ عليكِ غدًا وآخذها منكِ، إلى اللقاء..

عادت البهجةُ لملامحِ شام يا عروة بهذا الاتصال، بعد انتظارِ شهرٍ كامل توردت وُجنتا شام، ولمعت عيناها من جديد، أنهت عملها واتجهت مسرعةً للبيت...

أتعلم يا عروة، الحبُّ كالزرعِ تمامًا يحتاج للاهتمام حتى ينمو ويكبر، ولا بأس بقليلٍ من الحُزنِ واللهفةِ والانتظار ليكتمل..

لكن ماذا إن اجتمعَ الحبُّ مع الحربِ في آنٍ واحد يا عروة ؟ هل يستمر أم ينتهي ؟ في ظل أنَّ لا أحدَ يعلم متى تنتهي هذهِ الحرب

الملعونة، وإلى متى ستستمرُ بقنصِ النبضِ في القلوبِ، وإجبارِها على ذرفِ الدموع والدماء؟

مؤلمةٌ هي الحرب، ومؤلمٌ هو الموتُ على قيدِ الحياة، حينَ يتحولُ الإنسانُ لجثةٍ هامدةٍ بالرغمِ من أنهُ يتنفس..

وأجمل ما قد يحدث أن يقتحمُ الحبُّ القلوب، فتتوهجُ بالرغم من الألمِ الذي يسكنها.

وصلت شام للبيت، دخلت مسرعةً لغرفتها، نادتها أمها وقالت: ما بكِ يا شام؟ أول مرةٍ تدخلين دونَ إلقاء التحيةِ علي !!

أهناكَ أمرٌ ما ؟!

شام: أعتذر يا أُمي، لم أقصد، أنا فقط مُتعبة قليلًا من عملِ اليوم، وركضت لأحضانِ أمها وقبَّلتها ..

فابتسمت أمها ومسحت على رأسها، وتركتها لترتاح ..

وما إن خرجت أم شام من الغرفة، ركضت شام مسرعةً باتجاهَ أوراقها، أخذت ورقةً وقلم، واحتلَّت فراشها، كانت تُحاكي نفسها: هل تكتبُ لوطن؟ أم تنتظر لحين رؤيته ؟ هل تكتبُ له رسالةً عادية؟ أم تخبرهُ عمّا يحدثُ داخلها ؟ لكن لا قدرةَ لها على الاحتمالِ أكثر ..

قررت أن تكتب له ما يُمليهِ عليها قلبها، وبدأت بالكتابة والابتسامةُ تُزينُ ملامحها، كانت تتخيلُ وطن أمام عينيها، وكأنها تُحاكيهِ وجهًا لوجه ...

عروة: كتابةُ الرسائلِ لمن نحب تُعدُّ من أكثر الأمورِ روعةً على الإطلاق في هذا العالمِ البائس، كم هو جميلٌ أن نكتبَ مشاعرنا على ورقةٍ تحملُ رائحةَ عطرنا ولهفتنا وجنوننا؛ ليقرأها من نحب ويشعرُ بما نشعر ..

بعد مرورِ ساعةٍ بالضبط تمكنَ النوم من شام، نامت بطمأنينة لا مثيلَ لها في ظلِّ أن المرات التي نامت فيها بهدوء كانت معدودة، والأرقُ كانَ ملازمًا لها، وتشعرُ دائمًا أنَّ هناك شيءٌ ما يحولُ بينها وبين السّلام النفسي بمعناه الحقيقي..

نامت بعدما نثرت رائحةَ عطرها بين حروف الرسالة، منتظرةً أن يقرأها وطن ...

وكانوا أهله يحضّرونَ أنفسهم لرؤيته بعد غياب أوجع أرواحهم، حضّرت له والدته الكثير من الأغراض لأخذهم له...

ونام الجميعُ بسلام ....

في صباحِ اليوم التالي، استيقظت شام بحماس وذهبت إلى عملها، وصلت المشفى وكالعادة شربت القهوة مع زميلاتها، كانت رسالتها لوطن تختبئ في إحدى جيوبِ حقيبتها، تحملُ رائحةَ عطرها والكثير

الكثير من حروفِ العشق، تنتظر مرورَ إبراهيم لأخذ الرسالةِ وإيصالها إلى وطن ...

بدأ وطن بالتحسن نوعًا ما، لكن الكدمات لم تختفِ بعد عن جسده، وبقي ألم عظامه مرافقًا له بالإضافةِ لجرحِ أخيهِ محمد، كان يوسف ملازمًا له إلى أن تحسن...

وطن: شكرًا لك يا يوسف على ملازمتكَ لي إلى أن تحسنت..

يوسف: لا شكر على واجب يا وطن، نحنُ أخوةٌ بإذن الله، لكنني أريدُ أن أسألك عن شيءٍ ما وددتُ سؤالكَ عنه منذ شهرٍ تقريبًا، منذ ذاك اليوم الذي وقعتَ فيهِ عند باب الزنزانةِ حينَ تم استجوابك ...

وطن: تفضل يا يوسف، اسأل ما تريد ..

يوسف: طوال الأيام التي كنت فيها طريحَ الفراش، كنتَ تنادي باسمِ شام، وتقول بأنكَ لستَ مذنبًا !!!

ضحكَ وطن وقال: وهل كنت أُهلوسُ بأمورٍ أخرى ؟

يوسف: لا أبدًا، لكن من هي شام يا وطن، وإن كنتَ لا تريدُ الإجابة عن هذا السؤال فلكَ الحرية ...

وطن: إنها ابنةُ حاراتِ الشّامِ القديمة، إنها حبيبتي التي ردعها عن إتمامِ كلمةِ أحبكَ، دخول أشخاص أخرجوني رغمًا عني أمامَ عينيها وهي تتوسل لهم بتركي ...

أكمل محادثًا نفسه "كم أتمنى أن يكونَ إبراهيم استطاعَ الوصولَ لكِ يا شامي" ....

يوسف: وكم غبتَ عنها يا وطن ؟

وطن: 365 يوماً وأكثر يا يوسف ..

يوسف: وأما زلتَ تحبها بعدَ كل هذا الوقت، أم أن لهفتكَ قد انطفأت ..؟

وطن: أبداً يا يوسف، بل زادت لهفتي أضعافًا مضاعفة، وزادَ حبي لها أيضًا، وأتمنى رؤيتها ....

يوسف: إن الله يجمعُ المتباعدين يا وطن، وبإذنِ الله ستلتقي بها ...

نادى أحدُ الموجودينَ في الزنزانة على يوسف، فطلبَ الإذنَ من وطن، فسمحَ له ..

تركَ يوسف وطن وحيدًا مع أفكاره، يفكر بشام، بوالدته ووالده وإخوته، يفكر فيما سيحدثُ بعد ذلك، يسألُ نفسه لماذا لم يتم استدعائهُ للتحقيقِ مجددًا منذ آخرِ مرةٍ حُققَ معه فيها ..؟!

مرَّ الوقتُ قبل الزيارةِ وكأنه ألف عامٍ وأكثر، إلى أن أتى هذا اليوم المنتظر، استيقظَ الجميعُ مبكرًا قاصدينَ العنوان الذي ذهب إليهِ إسلام، واتصل أبو محمد بإبراهيم ليلحقَ بهم بعد أن أخبرهُ بالمكانِ المقصود، فخرجَ إبراهيم إلى المشفى ليأخذ الرسالةَ من شام ومن ثمَّ اللحاق بأهل وطن ..

كان الساعة الثامنة صباحًا حينَ وصل إبراهيم المشفى واتصل بشام لتلاقيه عند الباب الخارجي، فخرجت لهُ مسرعة، بعدَ ثوانٍ معدودة .....

شام: صباحُ الخير يا وطن

نظر لها إبراهيم باستغراب وضحكَ قائلًا: أنا إبراهيم يا شام، لستُ وطن، صباح الخير

ضحكت شام ضحكةً خجولة واعتذرت منه، وقالت له : ها هي الرسالة يا إبراهيم، انتبه لها جيدًا، وأبلغ سلامي لوطن..

إبراهيم: إن شاء الله يا شام، أستأذنكِ الآن فيجبُ أن أصلَ في الموعد ، إلى اللقاء ..

عادت شام إلى عملها، واستقلَّ إبراهيم سيارة أُجرة ليصل في الوقتِ المناسب؛ ليقابل أهل وطن، ويدخلَ الجميعُ معًا لرؤيته .. القلبُ يخفقُ بشدةٍ يا عروة، فرسالةُ شام تقترب من أن يمسكها وطن بيديه ..

بعد مرورِ ساعتين التقى إبراهيم بأهلِ وطن، فسلَّم عليهم جميعًا وانتظروا قليلًا من الوقت حتى أتى إسماعيل، قامَ بمكالمة خاصة ليدخلوا أهل وطن وإبراهيم بسلامٍ لرؤيةِ وطن، التقوا بعناصرِ الشرطة، قاموا بتفتيشهم جميعًا وأغراضهم أيضًا ...

لم يكن وطن على علمٍ بشيءٍ قط، حينَ وصلوا للغرفةِ التي ينتظرونَ فيها، بعد 10 دقائقَ فقط ذهبَ أحدُ عناصرِ الشرطة للزنزانةِ لاستدعاءِ وطن ..

نادى: أينَ وطن ؟؟؟

وطن: أنا هنا أيها الشرطي، أهناكَ أمرٌ ما ؟!

الشرطي: اخرج معي، هُناكَ زيارة لك ..

لم يخطر في بالِ وطن من الذي ينتظره، رافقهُ الشرطي لنهايةِ الممر، إلى الغرفةُ التي ينتظرُ فيها أهله، نظرَ وطن إلى يمينه، وقفَ لدقيقةٍ مصدوماً مما رأى، ثمَّ ركضَ إلى أحضانِ أمهِ وأبيه، قبَّلهما كثيرًا، وامتزجتْ دموعهُ بالضحكات، وهو يقول لهم: اشتقتُ لكم ...

ثمَّ سلَّم على أخيهِ إسلام وبقيةِ إخوته بحرارة، إلى أن وصلَ لإبراهيم فسلَّمَ عليه وقال له: ونعمَ الصديقُ يا إبراهيم، وضعتُ ثقتي بكَ ولم تخذلني، فضحكَ إبراهيم وهمسَ في أُذنه: وقد جئتكَ بحروفٍ من تحب أيضًا، لم يفهم وطن بالضبط ما يقصدهُ إبراهيم ..

جلسوا جميعًا وبدأ وطن بالتحدثِ معهم بعد غياب، يتأملُ ملامحهم والسعادة تغمره ..

كانَ الإذن المُعطى لإسماعيل " أنَّ الزيارة مدتها ساعتين "، مضى الوقت بسرعة، ووطنْ تتملكهُ الطمأنينة؛ فقد رأى أهلهُ بأحسنِ حال...

جاء أحد عناصرِ الشرطة وأخبر من هم بالغرفةِ أن الزيارة قد انتهت، فخرجوا جميعًا بعدَ أن سلَّموا على وطن، إلى أن أتى دورُ إبراهيمَ بوداعِه، سلَّمَ عليه وأخرجَ من جيبهِ رسالة شام ووضعها بيدِ وطن وقالَ له: اقرأ هذه الورقة وستفهمُ كلَّ شيء ..

نظرَ وطن لإبراهيم باستغراب: ماهذه ؟! ولم يُسمح له بالوقوفِ أكثر مع إبراهيم، أتى الشرطي لإرجاعِ وطن إلى الزنزانة....

خرجَ الجميعُ بعد انتهاءِ الزيارة، وفُتحَ باب الزنزانةِ لإدخالِ وطن، استقبلهُ يوسف للاطمئنانِ عليه..

فأجابهُ وطن: قد كانت زيارة لي، والدي ووالدتي وإخوتي وصديقي يا يوسف

يوسف: حمدًا لله يا وطن، أنكَ رأيتَهم بأحسنِ حال

قال له بعد ذلك: إنني أشربُ الشاي، تعالَ لنشرب سويًا، فوافقَ وطن، وجلس لشربِ الشاي مع يوسف ...

كانَ الانتظار هذهِ المرة مختلفًا نوعًا ما، انتظار شام لإبراهيم؛ لتطمئنَ أنَّ الرسالةَ وصلت لوطن، كانَ مليئًا باللهفةِ والسعادة... مرَّت نصف ساعة على جلوسِ وطن ويوسف لشربِ الشاي، تذكر وطن الورقةَ التي أعطاهُ إياها إبراهيم وطلب منه أن يقرأها، استأذنَ وطن من يوسف بالذهاب إلى سريره، وفعلًا هذا ما حدث، احتلَّ وطن سريرهُ ومدَّ يده إلى جيبهِ وأخرجَ الورقة ... كانت رائحتها غريبة نوعًا ما بالنسبةِ لوطن، فتح الورقة بسرعةٍ ليرى ما فيها :

" مرحبًا يا عشوائي الشامات، يا أسمرَ البشرةِ وطويلَ القامة، يا صاحبَ الذقنِ المهملة، أذكرُ أنَّ هناكَ عشرُ شاماتٍ تسكنُ وجهك، وأحفظُ أماكنهنُ أيضًا، وأنَّ غمازتكَ التي تستقرُّ في خدّكَ الأيسر ظاهرة بطريقةٍ مُلفتة أكثر من الخدِّ الأيمن، وأنَّ عروق يديكَ واضحةً جدًا أيضًا، وأذكر طريقتكَ في مسكِ السيجارةِ بين السبّابةِ والوسطى، أتذكر حينَ اعترفتَ لي بـ حُبّك ؟

حينَ قُلتَ لي: أحبكِ، وخيَّم الصمت علينا بعدها، حاولتُ في وقتِ سكوتك أن أسترجعَ الشعورَ بحواسي، وما إن بدأتُ بالتماسكِ من جديد حتى قُمتَ بإغراقي في بحرِ رجولتك؛ حينَ أشعلتَ سيجارتك، وأكملتَ حديثك وبقيتْ السيجارةُ في فمك، أعشقُكَ حينَ تتحدث والسيجارةُ تمكثُ بينَ شفتيك، أقسمُ أنها

كانت المرةَ الأولى التي يُثارُ فيها انتباهي بشكلِ سيجارةٍ في يدِ أحدهم، أول مرّة يكون مشهد إشعالها جذّابًا، كانت أوّل غيمةٍ من الدخّانِ أشبه بالنوتات الموسيقية التي تُكتَبُ في كراساتِ الموسيقيين، كان شكلها ساحرًا جدًا، كيف من الممكن أن يُسلَبَ قلبي بتصرّفٍ عاديّ، معتاد بالنسبةِ لك؟ يحوّلُ عقلي لمجردِ آلةٍ صُنعت من حُبٍّ؛ لأجلِ تعدادِ غيماتِ الدخانِ التي تخرجُ من فمك، وكم من الوقتِ تمكثُ السيجارةُ بينَ شفتيك !!

رَجُلي ..

أودُّ إخبارك أنني قمتُ بتخبئةِ سُترتكَ في خزانتي وكاميرتكَ أيضاً منذ ذاكَ اليوم، شعرتُ أنَّ أغراضك أمانةً لديّ لحينِ رجوعك في ظلِّ أنني لم أكن أعلم إن كنتَ ستعودُ أم لا، ظننتُ أنكَ ذهبتَ دون عودة كأبي بالضبط، لكن عندما جاء صديقكَ إبراهيم إلى المشفى للسؤالِ عنّي وأخبرني بكلِّ شيء أشعلَ داخلي فتيلَ الحبِّ والاشتياقِ واللهفةِ من جديد، أعرف أنَّ الكثيرين بحثوا عنك، لكنني كنتُ أنتظرك يا وطن، وأعرفُ أنَّ الكلمات المكتوبة تُخفي عادةً حقيقة الشعور؛ لأنَّ المواقفَ التي تُعاش وتُحَس تبدو أكثر صدقًا من كلماتٍ خُطَّت على ورقةٍ ستهترئ بعد مدةٍ من الزمن، لكن ليس بوسعي فعلُ أيِّ شيءٍ سوى الكتابة لكَ الآن، فحين أمسكتُ هذه الورقة لأكتب كنتُ أعرف أنَّ شيئاً واحدًا فقط

أستطيع قوله وأنا أثقُ من صدقه وعمقه وهو أنني أحبكَ يا وطن ... الآن أشعرُ بها عميقةً أكثر من ذاك الوقت الذي لم أستطع فيهِ نُطقها كاملة..

وطن، صوتكَ يرنُّ في أُذني للآن، يُشكّل فقاعاتِ سعادةٍ تنتثر في الهواء لتُحيطني بكَ في كلِّ وقتٍ وحين، تمنيتُ كثيرًا لو أنني كنتُ شامةً تسبحُ مع باقي الشاماتِ باسترخاء في وجهك، أحبكَ يا وطن، أحبك، ها أنا أنتظرك، فلا تتأخر ... "

شام .. "

ضاعت الكلمات، ماذا بوسعِ وطن أن يقول بعد هذه الرسالةِ التي تحملُ رائحةَ شام وكلماتها، وسعادتهُ التي كانَ سببها إيفاء إبراهيم بوعده..

حضنَ وطن نفسه ورسالة شام، وتكوَّرَ في سريره، لا يريد أن يتحدثَ مع أحدٍ قط، لا يُريدُ أن تختفي نشوةَ الشعورِ التي يشعرُ بها، فنامَ وهو يفكر بشام ....

رائعة هي نشوةُ الحبِّ يا عروة، أليس كذلك ؟!

أتذكر ابتسامتكَ حينَ اعترفت لكَ هناء بحبها برسالةٍ أيضًا ؟!

ألم تُشعر حينها أنكَ تملكُ الدنيا وما فيها ؟!

أذكرُ ضحكتكَ التي زيَّنت وجهكَ حينَ قرأتَ رسالةَ هناء...

" أحبكَ حُبَّين، حُبَّ الهوى وحبًا لأنكَ أهلٌ لذاك "

أتذكرُ هذهِ الحروف ؟!

أنتَ ووطن الآن تشعرانِ بنفس الشعورِ تمامًا، كلاكُما عُشّاق ..

عاد أهلُ وطن للبيت بسعادة لا مثيلَ لها بعد زيارتهم لابنهم، كانَ إسماعيل قد أخذَ الإذنَ من الضابطِ المسؤول بزيارةٍ أسبوعية لوطن كبقيةِ المقيمينَ معه بعدَ إثباتِ براءتهِ بطريقةٍ لا يمكنُ تصورها حينَ أتى أحدُ الأشخاص الذين اختطفوا وطن ومن معه لزيارة الضابط المتواطئ معهم، كانا يجلسانِ سويًا بمرورِ أحدِ عناصرِ الشرطة بالصدفةِ البحتة، وسمعَ الضابط يقول لهذا الشخص: ألم أقل لكَ ألف مرةٍ ألّا تأتي إلى هُنا ؟! لا أريد أن يلاحظ أحد مجيئك باستمرار، فردَّ عليه الشخص " الذئب "كما يسمى: لم آتي إلى هُنا إلّا من أجلِ أخذِ المال الذي لي في ذمتك بعد إتمامِ عمليةِ اختطافِ الصحفي وزملائه، وأريدُ المالَ الآن ولن أخرجَ دونه...

صُدمَ الشرطي ممّا سمع، وذهبَ مُسرعًا لغرفةِ الضابط المسؤول وأخبره، فتركَ الضابطُ المسؤول عملهُ بسرعةٍ مُتجهًا للغرفةِ التي دلَّهُ عليها الشرطي، دفعَ البابَ بقدمهِ ودخلَ عليهما وقد كانَ " الذئب" يستلمُ المال مقابل إتمامِ المهمةِ التي وُكلَت إليه...

صرخَ الضابط المسؤول قائلًا: أتبيعانِ وطنكما مقابل المال؟ وتتسببانِ بإزهاقِ أرواحٍ لا ذنبَ لها بهذهِ السهولة ؟؟ ثمَّ نادى عناصرَ الشرطة لأخذهما وتقديمهما للتحقيق...

وقد اعترفَ " الذئب" عن كلِّ العملياتِ التي تم تنفيذها بناءً على رغبةِ بعضِ رجالِ الدولة الذينَ لهم من المناصبِ ما يعطيهم الحق بفعل ما يُريدون ولا يردعهم أحد، وكُرِّمَ الشرطي الذي كانَ سببًا ببراءة وطن والكثير من أمثاله ..

اتصلَ إسماعيل مساءً بإسلام وأخبرهُ عن كلِّ ما حدث، وأخبره عن موعد الزيارةِ القادمةِ لوطن، فما كانَ من والدِ وطن بعد سماعِ هذه الأخبار من إسماعيل إلّا أن اتصل بإبراهيم أيضًا وأخبره كلَّ شيء ...

فكَّر إبراهيم كثيرًا، هل يتصل بشام؟! أم يذهب لرؤيتها ؟!، لكنه بعد أن فكَّرَ بالأمر قرر أن يذهب ليراها ويخبرها بكلِّ ما حدث بالتفصيل، فخرجَ من بيتهِ قاصدًا المشفى، كانَ يبتسم طوال الطريق، فقد حُلَّت عقدةُ وطن بتيسير من الله لم يكن بالحُسبان، قبل تحويلهِ للمحكمة والحكمُ عليهِ ظلماً وبهتاناً ..

وصل إبراهيم إلى المشفى بعد مرور ساعةٍ بالضبط، اتصل بشام وأخبرها أنه ينتظرها في الكافيتريا، فذهبت إليه سريعًا، تريدُ معرفة ما حدث !!!!

وصلت إلى طاولتهِ بلهفة: مرحبًا إبراهيم، أخبرني كيف حالُ وطن؟! هل هو بخير؟! هل أعطيته رسالتي ؟! ماذا قال لك ؟! و....

قاطعها إبراهيم بضحكةٍ قائلًا: انتظري يا شام سأُجيبكِ عن كلِّ أسئلتكِ، فقط اجلسي واسمعيني ...!!

جلست شام وقالت: هيا قل لي بسرعة، لا أُطيقُ الانتظار أكثر ، هيا قُل !!!

إبراهيم: اسمعي يا شام، رسالتكِ وصلت إلى يد وطن بسلام، والذي حدث يتلخصُ ببراءةِ وطن من كل تهمةٍ وِجّهت له، بعد أن اكتُشِفَ تواطؤ أحد الضباط الذين استجوبوا وطن مع جماعة مخربة؛ لينتقم من وطن وبعض الصحفيين الذين أظهَروا ملفات خطيرة تَفضحُ أفعالًا مُشينة لرجال في الدولة بأدلة لا يمكن نُكرانها، أو تكذيبها ...

شام: والآن ما الذي سيحدث؟!

إبراهيم: لا نعرفُ أيَّ شيءٍ بعد، إلّا موعدُ زيارتنا القادمة لوطن..

شام: إبراهيم، أرجوك أُريدُ منكَ طلبًا آخر !!

فهزَّ إبراهيم رأسه بقصدِ القبول

شام: أريدُ أن أبعثَ معكَ قطعةَ قُماش صغيرة قمتُ بتطريزِ اسمَ وطن عليها، أريدكَ أن تُعطيه إياها ...

إبراهيم: حسنًا يا شام

أعطت شام لإبراهيم قطعة القماش تلك بعد أن رشَّت عليها من عطرها، فأخذها ..

وطلبَ الإذنَ من شام بالذهاب، فهناكَ أشغال تنتظره ..

كيفَ يمكنُ للأمور أن تسير بسهولةٍ هكذا !! وقد كانَ ظاهرًا أنها معقدة ولا يمكنُ حلّها، هذا ما تواردَ لذهنِ الضابط المسؤول حينَ جلسَ مع نفسه بعد استجوابِ " الذئب " والضابط رقم 202 وقد اعترفا بكلِّ شيء...

بعد مرورِ أسبوعينِ من زيارة أهل وطن للسجن، استدعى الضابط المسؤول وطن لغرفته، وعندما وصلَ وطن ..

الضابط المسؤول: تفضل يا وطن، وابتسمَ له !

كانَ الاستغراب واضحًا على وجهِ وطن، بترحيبِ الضابط له ...

جلس وطن على الكرسي المقابلِ للضابط، فقابلهُ بابتسامةٍ قائلًا: صاحبُ الحقِّ غالب يا وطن

وطن: صحيح يا حضرةَ الضابط، لكن ما مناسبة كلامك هذا ؟!

الضابط: ظهرت براءتك يا وطن بطريقة لا يعلمها إلّا الله ..

وأخبره عن كلِّ ما حدث، وموعد زيارةِ أهله القادمة، لحين استكمال الإجراءات لخروجه هو وأصحابه من السجن ..

لم يصدق وطن ما سمع، ابتسم للضابط وطلبَ منهُ الإذن بالعودة للزنزانة..

كانَ يفكر بتدابيرِ الله الخفية، وأن الله سيظهرُ الحقَّ ولو بعدَ حين، ويفكرُ بأخيهِ محمد ..

عاد للزنزانةِ مبشّرًا يوسف بأنه سيخرجُ قريباً، وسيعودُ لعمله، وفكّرَ برسالةٍ يرغبُ بكتابتها لشام في حالِ لو زارهُ إبراهيم أيضًا، فجلس في فراشهِ ليبدأ بكتابة ردٍّ يليقُ بها، إلى أن أخذهُ النومُ كالعادة وهو يحتضنُ شام في خياله ..

بدت الأيامُ جميلة يا عروة، فقد ظهرَ الحق، وأخيرًا وصلا وطن وشام لبعضهما، عادت شام للعملِ بروحٍ جديدة، تنتظرُ خروجَ وطن بفارغِ الصبر، وتنتظرُ رجوع إبراهيم لها برسالة من وطن، وأمُّ وطن تتحضّرُ لزيارةٍ جديدة تأخذُ فيها ما يطيب لابنها من الطعام،

وقد حضّرت غرفته المهجورة منذُ عام وأكثر ليعود لها وتعود معهُ الأفراح ..

مضت الأيامُ حتى حانَ موعدُ زيارةِ وطن الثانية، وتمت الزيارةُ بأحسنِ ما يكون، فقد رأى أبواهُ وإخوتهِ وإبراهيم أيضًا، كانَ اللقاء حميمًا بينهم، فرحةُ وطن بما يحدثُ معهُ بعد عامٍ من العذابِ لا تُوصف.

كانت الزيارةُ المقررةُ مدتها ساعتين ملأها المزاحُ والضحكِ والأحاديثُ الدافئة، كانَ إبراهيم يجلسُ بجانب وطن، أخرجَ من جيبهِ ما أعطتهُ إياهُ شام وهمسَ لوطن: هذهِ لك..

فأخذها وطن وأعطاهُ ورقةً أخرى وطلبَ منهُ إيصالها لشام...

وانتهت الزيارةُ بحب ...

عادَ وطن للزنزانةِ وهو يحملُ بينَ يديهِ قطعة القماش وقد كانت مليئة برائحة عطرِ شام، فأخذ يتخيلها في أفكاره، وينتظرُ لقائها على أحرِّ من الجمر، وقصدَ إبراهيم المشفى بعدَ خروجهِ فورًا من السجن؛ للقاءِ شام وإعطائها رسالةَ وطن.

وحينَ وصل، اتصل بها لتخرج وتأخذَ رسالةَ وطن، شكرت إبراهيم كثيرًا على كلِّ ما فعلهُ من أجلها ...

ذهبتَ بعدَ ذلكَ مسرعةً لغرفةِ الممرضات، وأقفلت باب الغرفة لتبقى وحيدةً مع كلماتِ وطن لها... جلست وراء مكتبها كالعادة، وفتحت الرسالة بلهفةٍ لا مثيلَ لها ..

" مرحبًا يا صاحبةِ العينين البُنيتين، والملامح الأخّاذة، أتعلمينَ أنني اشتقتُ لملامحكِ حينَ ترتبكين، يا ابنة حارات الشام القديمة، شام؛ أنا رجلٌ لا أنسى قط، ذاكرتي لا تخونني أبدًا لكن هذه المرة تحديدًا خانتني ونسيت كل آلامي حينَ قرأتُ رسالتكِ كما نسيتُ ما أعاني منه من قبل بين يديك، وفي كلِّ مرة أودُّ فيها وصفك بقول أنكِ نِصفي الثاني، أتراجع يا شام، حاشاكِ أن تكوني نصف، أنتِ امرأة كاملة، أنتِ دنيا بأكملها .. أنتِ شامي، أتعلمين ؟ بالرغمِ من الجحيم الذي يطوق حياتي من كل جانب، إلا أنني شعرتُ بريحِ الجنةِ حينَ رأيتكِ، وأنني وبالرغمِ من الحرائقِ التي تحرقُ دواخلي إلا أنَّ الراحة كانت تحتلُّ جوفي في كلِّ مرةٍ أراكِ فيها، حبكِ يستحقُ أن أعيشَ له. وأن أُحارب من أجله، شامي: أنا منفيّ من

كلِّ بقاعِ الأرض لـ قلبكِ أنتِ منتظرًا أن تكوني لي إلى يومِ يبعثون..

للهِ درُّ تولُّعي واشتياقي يا شامي، انتظريني فقد اقتربَ لقاؤنا، أتوقُ لرؤيتكِ يا أميرتي ...
أحبكِ ...."

وطن .. "

بكت شام، ولم تعرف إن كانت هذه دموع الفرحة والأمان، أم الخوف من القادم، أو ربمّا تذكرت والدها..

تركت مكتبها وجلست على الكرسي المقابل للنافذة، واحتضنت رسالة وطن بلهفة، كانتْ تشعر أن كلَّ شيءٍ أصبحَ جميلاً، فتحتْ الرسالة مجددًا وبدأت بالقراءة من جديد ...

عروة، كلانا نعلم أنهُ ليسَ هناكَ أجملُ من الرسائل الورقية، فإننا نتحسسُ فيها كل كلمة كُتبت، وإن أُلحِقَت بابتسامةٍ أو دمعة، نعرفُ أيضًا الكلمات التي كتبت بسرعة كدقّات قلبِ صاحبها، أو الكلمات التي كتبت بقوة نتيجة الضغط على القلم لأنها خرجت من

القلبِ بطريقةٍ عميقةٍ صادقة، وعلاماتُ الترقيمِ التي توضعُ في مكانها المُعتاد كالنجومِ التي تُنثَرُ في السماء كل ليلة؛ لتبدو الرسالةُ أكثرَ جمالًا..

أتعلمْ أيضًا أن الفاصلة تحديدًا في حالِ الوقوفِ عندها تبدو وكأنها استراحة لتخيّلِ المُرسلِ إليه وردّات فعله..!!

وترتيبُ الخطِّ ليبدو سهلًا للقراءة، وتمييزُ بعضِ الكلمات بألوان الحبر، والابتسامة التي ترتسمُ على الملامحِ حينَ نُفكر في مشاعر المُرسِل و أمنيتهُ التي تتلخصُ بإيصالِ رائحة عطرهِ مع الرسالة لتنتقل للطرفِ الآخر وكأنه " سيحتضنهُ من خلالها ".

والحيرة الجميلة في كتابةِ النهاية، إن كانت كلمة واحدة تفي بالغرض أم أن القلب يشعرُ فجأةً أنه يجب عليه إخراج الكثير من المشاعرِ في نهايةِ الرسالة؛ لتكونَ كاملة ولا يتملكُ صاحبها الندم لأنهُ قد شعرَ لـ لحظة أنه كانَ بوسعه كتابة المزيد .. ولكن الوقت لم يسعفه ربّما، أو الورقة لم تتسع لكثير من الكلمات ...

ويكمنُ الجمال في الوقت الذي ستصلُ فيهِ الرسالة، كم من الوقتِ ستستغرق في الوصول. فانتظارها بلهفة، واستقبالها بلهفةٍ أيضًا أجملُ من ألفِ رسالة إلكترونية ...

كل هذه المشاعرِ والإيماءات، فُقِدت في زمننا يا عروة، فالرسائل الإلكترونية لا تحتوي شيئًا من الشعور وإن احتوت قليلاً منه فلن تصل لمرحلةِ اللهفة التي نشعر بها عند كتابة الرسائل الورقية، أو لقاء الطرف الآخر على أرض الواقع ، للأسف ...

الآن بدأ الانتظارُ يكبر، أهل وطن وشام ينتظرون خروجه بفارغ الصبر، وفي نفسِ الوقت كبرت الحربُ أيضًا، لم تهدأ قط، وتزداد طرديًا أعدادُ الضحايا....

حُكمَ على الضابط " رقم 202 " ومن معه وعلى رأسهم " الذئب" بالسجن لمدة 25 عامًا، بتهمةِ خيانةِ عملهم ووطنهم ...

كانَ هذا الحكمُ ذو فائدة كبيرة لكثير من الناس الذين كانوا تحتَ رحمتهم، فقد كانوا يتحملونَ منهم كل أنواعِ الإذلال والقهر

والاعتداء دون وجهِ حق، واكتُشِفَت بعد ذلك عصابات أخرى جمعتها مصالح مشتركة مع الضابط " رقم 202 " وأمثاله ...

كانَ الضابط المسؤول قد قام بجميع الإجراءات لخروج وطن من السجن بعد اكتشاف براءته، ولم يبقَ سوى خروجه ...

هل الحبُّ خطيئة يا عروة؟؟ أشعرُ وكأنها كلمة نخاف حتى من نطقها في مجتمعاتنا العربية؛ فالثقافة السائدة وعالمنا المحيط بنا يرعبنا من الحب، بالإضافة إلى كلِّ التفاصيل التي تحدثُ في كل علاقة تؤدي إلى إنهائها بطريقة بشعة مأساوية، فالخوفُ تملكنا ومنعنا من الخوضِ في علاقةٍ رُبَّما تقودنا للخسارة، خسارة أنفسنا، مشاعرنا، وقتنا، واستنزاف طاقاتنا..

لكنني أشعرُ أيضًا بالتناقضِ في مبادئنا وأفكارنا، فمجتمعاتنا العربية تسمح للذكر أن يعبث كما يشاء ويحبُّ كما يشاء باعتبار أنَّ هذا الشيء حقٌّ من حقوقه، وعندما تقعُ الفتاة بالحب تُخفي حبها كالخطيئة بين حناياها؛ خوفاً من الفضيحة أو السمعة السيئة، رغم أنه حبٌّ بريء لا تشوبه أي شائبة، ولكننا تعلمنا منذ الصغر أن الحب خطيئة ولا يمكنُ غفرانها، وفي نفسِ الوقت نتلهفُ لقراءة

حروف شخص يكتب أو يتكلم عن الحب، نتلهفُ لشراء كتابه والاستماع لحديثه والاستمتاع به، ومن ثمَّ ننتقده أمام الناس ونصفه بالجرأة المطلقة، التي لا تُطاق ..

وفي دواخلنا نتمنى أن نكون مثله، ولطالما كان الحبُّ من المواضيع التي تلفتُ نظر الجميع، فكلٌّ منّا يحملُ في داخله بذرةً تتوق للحب وتودُّ أن تعبر عنه، ولكن بِتنا نخاف فعلاً من استخدام أيِّ مفردات تدل على الحب حتى بين أهلنا، لأننا لم نتعلم منذ الصغر أن نعبر عن مشاعرنا بطريقة واضحة، فلا بدَّ أن تخضع مشاعرنا للفحص والتدقيق بمفردات كلامنا وتصرفاتنا حتى لا يُساءَ فهمنا، وكأن الحب خطيئة ...!

سأذكِّرك ببعضِ الأمور يا عروة ..

أتذكر عندما اعترفت لكَ هناء بحبها ولم تكترث لعاداتِ مجتمعاتنا العربية؟، فقد اعترفت لكَ بطريقة تُناسبُ قلبها، وعندما طلبت منكَ أن تأخذها في أحضانك قبلَ أن تسافر إلى أهلها، كانَ ردُّك: أنا أمامكِ، فكانت خائفة من أن تفعل هذا الشيء؛ بسبب أنَّ المارّين كُثُر .. واعتبرتْ أنّكَ لا تفهمها..

وصعدت إلى الباص...

وسألتَ نفسك: من أيِّ شيءٍ كانت تهرب ؟!

وبقيتَ واقفًا تُناظرها وهي جالسة بجانب النافذة، وبعدَ ثوانٍ معدودة أدرتَ ظهركَ ومضيتْ..

وفي مرةٍ أُخرى كُنتَ تمشي معها في إحدى الحارات القديمة.

وطلبتْ منكَ ذات الطلب: أنها تشتهي احتضانك ..

فما كانَ منكَ حينها إلّا أن أخذتها بين يديك، فاعترفتْ أيضًا أنها تودُّ تقبيلك، فقلتَ لها: ما الذي يمنعكِ ؟!

فكان الخوفُ جوابها، لكنها لا تعرف ممّا تخاف، وما سببُ خوفها.

أيمكنُ أننا نخاف ولا نعرفُ سبباً لخوفنا يا عروة ؟!

تُعجبني جرأة هناء في الاعتراف، بالرغمِ من خوفها أحياناً..

لماذا لم تعتبر هناء أن الحُبَّ خطيئة، ولا يجبُ عليها الاعتراف خوفًا من كلامِ الناس؟!

هنا الاختلاف بين شام وهناء، فالجرأة التي تملكها هناء في حُبك، يوجد مقابلها الكثير من الخوف والتحفظ عند شام، فهي لم تخبر أحدًا قط عمّا يدور بينها وبين وطن، خوفًا من كلام سيُقال، ونظرات ستجرحها، ثمَّ تجرأت بعد ذلكَ ع الأقل حينَ بَعثَت رسالتها مع إبراهيم وطلبت منهُ بطريقة واضحة وصريحة أن يقول لوطن: شام تنتظرك ...

ممّا يَهربنَ يا عروة؟! ولمَ الخوف ؟! وما الفرق بين امرأة تخاف من الحب ذاته، وبين أخرى تخافُ من كلامِ المجتمع .. ؟!

يبدو أن الجرأةَ بالحب بالنسبةِ لنا نحن كإناث، تكمن بالرجلِ الذي يحتل حياتنا، إن كانَ أهلًا للاحتماءِ به أم لا، لهذا أنتَ ووطن أهلًا لذاكَ الحبِّ الذي أقصدهُ يا عروة ..

بعدَ مرورِ أسبوعين من زيارة أهل وطن له للمرةِ الثانية، أتمَّ الضابط المسؤول جميع الإجراءات لخروج وطن، وقد أصبحَ حُرًا في تاريخ 2013/12/15 بعد أن قضى ستّة أشهر من العذابِ والانتظارِ بين جدرانِ السجن ...

كانَ فصلُ الشتاءِ قد حلَّ من جديد، وكم من القلوبِ تشعرُ بالدفء بالرغمِ من البردِ المقيم؛ بسبب وجودها بجانب من تحب...

منذ آخرِ رسالة وصلت لشام من وطن، لم يتصل بها إبراهيم إطلاقًا، بدأت تشعرُ بالخوف، ظنَّت أن هناكَ أمرًا جللاً قد حدث، تحديدًا حينَ كانت تتصل بإبراهيم ولا يرد على مكالماتها، في ظلِّ أن عدم رد إبراهيم على اتصالاتِها ورسائلها النصية كانَ بناءً على طلبِ وطن ...

بعد احتفال أهل وطن بخروجهِ من السجن، جلس في البيتِ لمدةِ أسبوعين متواصلين، أتى إبراهيم لزيارته..

استقبلهُ وطن بحرارة، وجلسا سويًا يتحدثان عن كلِّ ما حدث في غيابه، فقصَّ عليه إبراهيم كل ما حدث ومن بينِ الأحداث التي أخبره بها هي سعادةُ شام برسالته، وانتظارها له ..

طلبَ وطن رقمَ شام من إبراهيم، وطلبَ منهُ أن لا يردَ في حالِ لو اتصلت به، فكانَ يحضّرُ لها مفاجأة ليراها بطريقة هو يرغبها...

بدأ اليأس يتملك تفكيرَ شام، إلى أن جاءَ الوقت الذي وصلت فيهِ رسالة نصية من رقمٍ مجهول لكنه لم يعد كذلك حينَ قرأت اسم وطن في نهايته ...

" شامي، أنا حرٌّ الآن، أودُّ رؤيتكِ في أسرعِ وقتٍ ممكن.. وطن"

وكتب في الرسالةِ اسمَ المكان الذي يودُّ رؤيتها فيه، صُدمَت شام ممّا قرأت، فعادت لقراءة الرسالة مرة أخرى، وإذ بهاتفها يرن...

شام: آلو

وطن: شامي، أقسمُ لكِ أنني حُر، اشتقتُ لكِ، لابتسامتكِ، للونِ البنِّ في عينيكِ...

وشام تستمع له فقط..

وطن: شامي، أتسمعينني ؟! أينَ أنتِ ؟!

ردت: أسمعك، لكن ماذا عسايَ أن أقول، ظننتُ أنَّ هناكَ شيء ما يقفُ بيننا ولا يريدنا أن نكونَ سويًا، بعد أن اتصلتُ بإبراهيم مراتٍ عدّة ولم يرد ...

وطن: شامي، امسحي كل ما حدث من ذاكرتكِ وكوني معي الآن، أرغبُ برؤيتكِ قبل العودةِ للعملِ مجددًا، أريدُ أن نتكلمَ في أمورٍ عدة...

شام: إن شاء الله سنل....

قاطعها وطن: قولي لي أحبك !! فأنا متلهفٌ لسماعها منكِ، أرجوكِ.

شام " بخجل ": يجبُ عليَّ الذهابُ الآن، فهناكَ عملٌ ينتظرني، سأراكَ قريبًا، إلى اللقاء.

وأقفلتْ الخط ..

ضحكَ وطن، بعد إقفال الخط، فقد تذكر ارتباكها أيضًا حينَ قال لها بأنه يحبها أول مرة ...

أكملت شام عملها بسعادةٍ تغمرُ روحها، وتنتظرُ اليوم الذي أخبرها عنه وطن في الرسالةِ النصية؛ لتذهب وتلتقي به ...

عروة، لو أنَّ صوت هناء قابلٌ للعِناق لعانقتَه، ولو كانَ قابلًا للتقبيل لقبّلتَه، ولو كانَ قابلًا للاختباءِ لخبَأتَهُ في روحك، ولو كان قابلًا للحديثِ معه لحادثتَهُ وحدَّثتَه، وما تركتَهُ أبدًا إلّا إذا نطقَ اسمك، ليجذبكَ باتجاهه ويقرع أبوابَ الحبِّ داخلك فتُفتَح، وتخرجُ منها الورود وتُزهر أضلعك، فيظهَرُ الحُبُّ في ملامحك وترتسمُ فيها لوحةٌ فنيةٌ مرسومةٌ بإتقان، وما بين حبٍّ وحب، نظرة ونظرة، عناقٌ وعناق، ابتسامة وابتسامة، تحبها أكثر، ولو سألوكَ في كلِّ مرّةٍ عن نوعِ الموسيقى التي تحبها ستختارُ صوتها كل مرّة، ولو سألوكَ أيضًا عن يومكَ المفضل سيكونُ الثلاثاء، بعدَ أن أصبحتَ تتوقُ لرؤيتها كلُّ ثلاثاء، أليسَ كذلك ؟! كنتُ أرى ذلكَ في نظراتكَ لهناء، أعرفُ أنَّ إجابتكَ ستكون نعم، لأنني أعي تمامًا أن صوتَ من نحب يُرِيكُ نبضات قلوبنا، ويقتُلُ مخارج الحروف لدينا، فنصبحُ مجردَّ حواسٍ لا تعي إلّا صوته ...

أصبحَ وطن يتصلُ بشام دائمًا؛ ليطمئنَّ عليها، إلى أن جاءَ موعدُ اللقاءِ الأول بعد غياب، خارج المشفى بعيداً عن رائحةِ الأدوية...

كانَ يومًا ممطرًا، كانتْ شام تباشرُ عملها في ذلك اليوم من الساعة الثامنة صباحًا، وموعدها مع وطن في تمامِ الساعةِ الواحدة ، أنهت عملها مسرعة وخرجت من المشفى إلى لمكان الذي أخبرها عنه...

الحُبُّ الصادق لا يعرفُ طريق النهاية يا عروة، فماذا إن كانَ حبًا في زمن الحرب، " حرب ونبض " اجتمعا سويًا؛ وواحدٌ منهما سيهزمُ الآخر، دُقَّت أجراس الحرب حين كان الحب أسمى قصة يعيشها الإنسان ؛ فـ زُجَّت الراء بين الحاء والباء، وخيَّم الدمار، والغيوم تبكي من شدةِ الألم الذي يسكن القلوب، والبردُ قارص، أحاسيس مبعثرة هنا وهناك ، وحجار مترامية في كلِّ مكان، والحزن يزيّنُ الملامح، والشوق يكبر ويتأجج في قلبيهما ولا لقاء بينهما يذكر منذ ذلكَ اليوم الأليم، كانا يفكران في بعضهما كل ليلة وفي كل مرة تباغتُ القذائف تفكيرهما، ليبدأ تشييع الجنازات .

وبعد كل قذيفة تسقط لا يُسأل : من مات ؟ بل من بقي ؟ .

كانَ وطن في كلِّ مرةٍ يفكر فيها بشام، يعود أدراجه في سريرهِ ليتوشح بوشاحٍ كبيرٍ مِن حريرِ الورقِ ليكتب عليهِ، ويلملمُ شتاته، يحاول أن يكتبها ، فلم يعد قادراً على تخبئتها داخله .

فأصبحت داخله كقنبلة موقوتة ويجب أن تخرج منه على هيئة كلمات عذبة يصف فيها ملامحها التي لم يشبع منها قبل عامٍ وأكثر، وطُبِعت ملامحها في ذاكرته، في ظلِّ أن قصة عشقهما ستدخلُ عامها الثالث منذ بداية الحرب، يكتبُ عن لهفة اللقاء الأول بعد الغياب والعذاب، الذي لم يكتمل بسبب أشخاص لا يعرفونَ للرحمةِ معنى، فأضاعَ كل منهما طريق الآخر، انتهى اللقاء قبل أن يبدأ ، ولم تنطفىء اللهفة ....

فكان الله في عون لغة يريد منها وطن أن تكون حبيبته "شام".

كم هي صعبة الحرب، تحوّلُ الإنسان إلى قاتل أو قتيل، ويجب أن يُلحِق كلّاً من طرفا الحرب الخسائر بالآخر؛ لينتصر، فعلى قدر الخسائر ينتصرُ أحدهما .

كل يوم يمرُّ عليهما يزداد الحب وتزداد اللهفة، والحرب تعيثُ خراباً في كلِّ مكان، في تاريخ 2013/12/28 الساعة التاسعة صباحًا، وصلتها رسالة منه:

" صباحُ الخير، شامي أنا بانتظارك " وقد كتب في الرسالةِ أيضًا أنه غيرَّ موعد لقائهما وجعلهُ في تمامِ الساعةِ العاشرة، أي بعد ساعةٍ بالضبط من موعدِ وصولِ الرسالة؛ فقد نفذَ صبره ولن يستطيع الانتظار أكثر، فجاءه ردَّها بالقبول .

وبدأ كل منهما بعدِّ اللحظات ليلتقيا، وكأنَّ الوقت يمرُّ ببطءٍ شديد، الدقيقة تمر وكأنَّها ساعة، خرجت شام من المشفى في تمامِ الساعةِ 9:30 لتصلَ في الموعد، وكلَّما اقتربا من المكان ازدادت سُرعة نبضاتهما أكثر، وحين وصلا سقطت قذيفة مجدداً لتهدم لهفة اللقاء، فعادت شام مسرعة للمشفى وبدأت فور عودتها بالإسعافات الأولية للجرحى الذين كانوا متواجدين في وقت سقوط القذيفة، تُسعفُ الجرحى بمساعدةِ زملائها والدموع تهطلُ من عينيها كأنها غيمة أُثقِلت بالهموم تبكي على لقاء لم يكتمل وعلى جراحٍ في وطنها لا تُشفى، كانت تفكر به كثيراً، وبالأسباب التي تلعب دوراً في غيابه عن قلبها، لكنها و بالرغم من كلِّ ما يحدث لا زالت تحلم بتلك اللحظة التي سيجتمعانِ فيها من جديد ..

بعد مرور ثلاث ساعات من موعد سقوط القذيفة، خرجت شام من غرفة الطوارئ قاصدة الباب الرئيسي للمشفى لتلتقط أنفاسها بعد تعب ساعات متواصلة، وقفت تفكر بما يحدث و بلقاء رُبَّما لا يريد أن يكتمل، ظنَّت أن الحلم الجميل تدَّمر بلعنة الحرب، تلك اللعنة التي صنعت تحولاً جذرياً في مخططاتهم، فأصبح جلَّ أحلامهما أن يشعرا بفرحة ذلك اللقاء، باغتت أفكارها يدٌ تلمس كتفها من الخلف وصوتٌ يقول لها : لو سمحتِ، أودُّ أن أسألكِ عن ....

وحين التفتَتْ لترى من يتكلم، صُدِمت ممّا رأت، وطن!!!

كانَ قد أُثقلَ بالجراح، وقفا ينظرانِ لبعضهما، نسي ماذا يريد أن يقول، وهي ضاعت في مدينةٍ أُخرى خاوية على عروشها لا يسكنها إلّا هو، لم تنطق ولو بكلمة واحدة وهو كذلك، ضاعت في تفاصيله وضاع هو في ملامحها، وقفا لم يحركا ساكناً بالرغم من أصوات البكاء حولهما وصوت القذائف التي تسقط كل دقيقة، والأطبّاء الذين يركضون لإسعاف الجرحى، وهما ينظران لبعضهما بلهفة، وعيونهما ذابلة مليئة بالدموع، بدأ المطر بالهطول فاختلطت

دموعها بقطرات المطر، هدأ قلبها حين رأته، وهو كان سعيداً بقدر ألمه، لم يكن هذا اللقاء كما هو مخطط له، بل كان لقاءً صامتاً، لم يكن بالحسبان كمية الألم واللهفة بلقاءٍ صامتٍ كهذا، لم ينطقا فيه ولو كلمة واحدة، وقعَ وطن أرضًا، فما كانَ من شام إلّا أن طلبت ممن كانَ بالقربِ من الممرضين أن يحملوا وطن ويضعوهُ في إحدى غرفِ الطوارئ لتقوم بإسعافه...

أُعيدت نفس الأحداث التي حدثت قبل عامين ..

ملأ الخوفُ جوفَ شام من أن تُعاد بقية التفاصيل، وبقيت بجانب وطن، وقامت بالاتصال بإبراهيم فلم يرد، فبعثت له رسالة نصية وأخبرته فيها أنَّ وطن في المشفى، وعندما انتبه إبراهيم لرسالة شام اتصلَ بأهل وطن وأخبرهم، كانت شام تجلسُ بجانب وطن وهي خائفة، كالأُم التي وقعَ صغيرها أرضًا فتمنَّت لو أنَّ الجراح التي أُثقِلَ بها كانت في جسدها هي، ولم يتألم هو ...

كم يبدو الأمرُ محزناً يا عروة، حينَ ترى من تحب طريحَ الفراشِ مثقلًا بالجراح، وأنتَ امتُحِنتَ بمرضِ هناء...

أتَذكُر كم كانت تتألم يا عروة؟! وكم كنتَ تتألمُ لألمها ؟!

وهذا ما حدثَ لشام حينَ سقطَ وطن بينَ يديها مُثقلاً بجراحه.

بقيت شام بجانبِ وطن، بعد مرور ساعة بالضبط دخلت والدتهُ والدموعُ تهطلُ من سماءِ عينيها، وبدأت تقبّلهُ وتقول: لم أفرح بعد بخروجك من السجنِ يا بني ..

أبو محمد: يكفي يا أم محمد، الحمدلله على ما حدث ..

شام: إنه بخير، قمنا بإعطائهِ مسكنًا للألم ليرتاحَ قليلًا، واستأذنت بالخروج لإكمال عملها والرجوع لوطن فيما بعد، لكن أوصتهم بعدم البقاء عنده طويلًا، بقيَ الجميع بجانبه، وشام يعتصرُ قلبها ألمًا على ما حدث، شعرت بأنها تودُّ احتضانه لتخفيفِ آلامه.

تذكرت أم محمد شام، فخرجت وراءها من الغرفة ونادتها؛ لتسألها عن وضعِ وطن ..

أم محمد: قولي لي يا شام، هل وطن بخير ؟

شام: إنه بخير يا أمي، لا تخافي .

وقبَّلت شام جبينَ أم محمد، وطلبت منها الرجوع للجلوس بجانبِ وطن..

ازدادَ صوتُ القصف بشكلٍ مُريع، قال أبو محمد: هيا لنذهب للبيت، فصوتُ الانفجارات يزداد، فخرجوا جميعًا قاصدين البيت، فرأت أم محمد شام من جديدٍ فأوقفتها وقالت: يا ابنتي أرجوكِ انتبهي لوطن، أرجوكِ ..

فقالت لها شام بابتسامة: لا تخافي سيكونُ بخير، وأخذت تطبطبُ على يدها؛ لتُطَمئِنها، وعادت مسرعة لغرفةِ وطن لتبقى بجانبه، وبعدَ مرورِ ساعتين بالضبط، دخل أشخاصٌ لا يُعرفُ لهم هوية، ذُعرت شام، وأخذت تفكر بشيءٍ تفعله؛ فلا ترغب بإعادة ما حدث، كانَ هناكَ طفلٌ ينامُ على السريرِ المقابلِ لسريرِ وطن، وكانت والدتهُ تجلسُ بجانبه، فقامت شام برفعِ وطن بصعوبة وطلبت من والدةِ الطفل أن تسحبَ الفراش عن السرير وأعادت وطن إلى السرير، ووضعت الفراش فوقه وحملتْ الطفل الصغير " حمزة" ووضعته على نفسِ السرير، بعدَ ثوانٍ معدودة دخلَ هؤلاء الأشخاص الغرفة، شعرت شام أنَّ قلبها سيخرجُ من قفصها

الصدري من شدةِ خوفها على وطن، حاولت أن تتمالكَ نفسها وأخذت تتحدثُ مع والدةِ حمزة عن وضعِ ابنها الصحي، وتمَّ أخذُ الكثيرِ من الرجالِ الموجودينِ في المشفى ومنهم الممرض " أحمد "، ولم يُعرف سبب هذه الانتهاكات، خرجوا من المشفى بعد بقائهم لبعضٍ من الوقت بعد أن دخلوا جميعَ الغرف، الصادم في الأمر أنهم حينَ خرجوا وضعوا المتفجرات أمام باب المشفى والمخارج والمداخل أيضاً وقاموا بتفجيرها، ممّا أدّى إلى إغلاق جميعِ المنافذ؛ بسببِ الانهيارات التي حدثت، وكأنَ المشفى أصبحَ تحت الأرض، جميع من كانوا داخلَ المشفى أصابهم الذُّعر، يصرخون وكأنَّ القيامةَ قد قامت، لم تفكر شام بأي شيء، قامت بإرجاع حمزة لسريره، وأرجعت الفراش كما كان لسريرِ وطن، ومن ثمَ طلبت من أم حمزة أن تنتبه لوطن لحينِ عودتها فقد خرجت لمعرفةِ ما الذي يحصلُ في الخارج، تفاجأت بأنهم لا يمكنهم الخروج أبدًا من المكان، بدأت تدخلُ كل غرفة لترى من بقي، لم يكن هناكَ إلّا الصغار والنسوة والكبار بالسن، والممرضات، حاولت الاتصال بوالدتها فلم تستطع، وحاولت أيضًا من هواتفِ زميلاتها ولم تستطع أيضًا ...

عروة، ألا ترى كيف تكثرُ الابتلاءات ؟! كيف يفكرُ الإنسان أن حزنه على وشكِ الانتهاء وفجأةً بعد مرورِ بعضٍ من الوقت يتضحُ عكسَ ذلكَ تمامًا...

عادت شام لغرفةِ وطن، رأته وقد بدأ بالاستيقاظ من أثرِ المنوم، أمسكت بيده، حينَ فتحَ عينيهِ ورآها، ابتسم لها قائلًا: شامي، ما أجملَ أن تكوني أول شيءٍ أراهُ في كلِّ وقت ..

احتضنت يدهُ بشدة وكأنها تستمدُ منه الأمان، شعرَ وطن أن هناكَ أمرٌ ما يشغلها، فسألها: شامي، أهناكَ شيءٌ ما حدث ؟! ماذا بكِ ؟! قولي ...

شام: لا شيء يا وطن، فقط بسبب ما حدث، وقامت بإعطائهِ الماء ليشرب قليلاً، وجود حمزة في الغرفةِ كانَ مظهر أمان لهما، فملامح الصغار دائمًا تهوّن على الأرواح أحزانها..

كانَ حمزة يعاني من هبوط في عضلةِ القلب، ولم يجدوا لهُ متبرعًا بعد، تحاولُ شام قدرَ الإمكان أن تبقى بجانبهِ بالأدويةِ المطلوبة إلى أن يشاء الله...

حلَّ الليل وشام لم تنهض أبدًا من مكانها، كانت الساعة الحادية عشرة بالضبط، حينَ استيقظ وطن ووجدها تنامُ على الكرسي بجانبِ سريره، كانَ سعيدًا جداً، فالمرأة التي أحبها لعامَين وأكثر أصبحت معه بعد عذاب ومواقف كثيرة مرّت بصعوبة، لم يكن يعلم بالذي حدث، كانَ فقط يحفظُ ملامحَ شام، يبحثُ عن الطمأنينةِ في عينيها، ولا يستطيعُ وصفَ شعوره ..

أشرقتْ الشمس ولا زال مستيقظًا يتأملها وهي نائمة، تركَ سريره وحاول المشيَ في الغرفة، إلى أن استيقظت.

شام: وطن! أتشعرُ بالألم ؟!

وطن: لا شامي، أنا بأحسنِ حال...

قامت شام بإعطاء حمزة الدواء، وتركت وطن لبعضِ الوقت لإتمامِ بعض الأعمال ..

كانت الصدمة الكبرى لأهلِ وطن حينَ عادوا لزيارته، ورأوا أن المشفى أصبح تحتَ الأرض ولا يوجد له أي ملامحٍ قط، فانهارت أم محمد وهي تبكي وتنادي: وطن، وطن ..

حاول أولادها تهدئتها، وحاولَ أبو محمد أن يتماسكَ أمامَ أولاده وهو من داخلهِ يكادُ يحترقُ حُزنًا ممّا رأى، عادوا للبيتِ بعد عناءٍ مع أم محمد بمغادرةِ المكان، حاولوا البحثَ عن حل، اتصلَ إسلام بإسماعيل وأخبرهُ بكلِّ ما حدث، فطلبَ منهُ إسماعيل مهلة ليرى ماذا بوسعهِ أن يفعل، واتصل أبو محمد بابنهِ محمد ليفعلَ أي شيءٍ مهما كانَ بسيطًا لإنقاذ أخيه، كانَ إسماعيل تائهًا بعضَ الشيء، فلا يعرف ماذا سيفعل!! بعد تفكيرٍ حثيث، ذهبَ إسماعيل في نفسِ اليوم للضابطِ المسؤول الذي كانَ مسؤولًا عن قضيةِ وطن، وشرحَ له ما حدث، وطلبَ منه على الأقل أن يسعى لإخراجُ من هم داخلَ المشفى بأسرعِ وقتٍ ممكن، وعاودَ الاتصال بإسلام وطمأنهُ أن كلُّ شيءٍ على ما يُرام، قامَ الضابط باتصالاتهِ للعمل بأسرعِ وقت على إخراجِ من هم بالمشفى، عادتْ شام بعد غيابها لأربعِ ساعاتٍ لغرفةِ وطن، وقد بدت علاماتُ التعب على وجهِ حمزة، سألتهُ ما به فأجابتها والدته: أنه متعبٌ منذ ثلاثِ ساعات ولا تعلم ما به ..

فسألتها شام: ألم تعطيهِ دوائه ؟!

فقالت لها أم حمزة: آخرُ جرعةٍ من الدواء أنتِ من قمتِ بإعطائهِ إياها يا شام ..

خرجت شام مسرعة تبحثُ هنا وهناك وتسأل الممرضات عن الدواء المطلوب، لكن للأسف لم تجده أبدًا، فالأشخاصُ الذينَ دخلوا المشفى قاموا بأخذِ جميعَ محتوياتِ الصيدلية

ومع ذلك لم يُصِبها اليأس، بقيت تدخلُ الغرفَ وتسألُ المرضى عن الدواء إن كان متواجدًا عند أحدٍ منهم، فهناكَ الكثير من مرضى القلب في المشفى، لكن للأسف لم تجده أيضاً، عادت للغرفة مرةً أخرى وجلست بجانب حمزة وأخذت تلعب معه؛ لينسى ألمه، وتفكر بطريقة لمساعدته، وكانَ وطن يتأملها وهي تداعبُ حمزة وتلعبُ معه، كانَ يفكر فيما تقدمهُ شام لإسعادِ المرضى والتخفيفِ عنهم، بقيَ حمزة على هذهِ الحالة أسبوعين كاملين، وكانَ وطن قد تحسَّن وأصبحَ بأحسنِ حال، إلى حينِ أن حصلت الكارثة، كانت شام في غرفةِ الممرضات تحاولُ البحثَ عن أيّ دواء يفي بالغرض، ظنَّت أنهم قد نسوا بعضًا من الأدوية، خرجت من غرفةِ الممرضات قاصدة الغرفة التي يمكثُ فيها حمزة ووطن، وكلَّما اقتربت

من الغرفة كانت تسمعُ صوت بكاءٍ وصراخ، وصلت الغرفة فوجدت حمزة قد توفي، حاولت قدرَ المستطاع أن تخفف عن والدته في ظلِّ حزنها، كانَ وطن مصدومًا ممّا حدث، وبدأ يسأل شام، لَمَ لم توفروا لهُ أدويته ؟! لَمَ لم تقوموا بمساعدته ؟!

فصرخت في وجهه، وقالت: لا يمكننا الخروج من هنا لنجلبَ لهُ الدواء، فعندما كنتَ طريحَ الفراش، دخل أشخاصٌ للمشفى وقاموا بأخذِ الرجال، وأخذوا كل الأدويةِ من الصيدلية.

وقفَ وطن مذهولًا ممّا سمع، ووقفَ في زاوية الغرفة لا يعرفُ ما الذي يمكنُ قوله، خرجت شام مسرعة تطلبُ المساعدة من الممرضات لأخذِ جثةِ حمزة إلى الثلاجة والتخفيفِ عن والدته، بعدَ ذلك توجهت شام لغرفةِ الممرضات وهي تبكي، وتفكر في ماهيةِ ما يحدث، موت حمزة، ووالدتها التي لا تعرف عنها شيئًا، ولماذا بعدَ انتظارِ عامٍ كاملٍ لوطن تُعادُ الكَرّةُ بطريقةٍ ربما تكونُ أبشع نوعًا ما من المرةِ الأولى ...

خرجَ وطن من الغرفة يسأل عن شام، فأخبرته إحدى الممرضات أنها شاهدت شام تجلس في غرفتهن، كانَ الجميعُ مُتعبًا فلا طعامَ في المشفى منذ أسبوعين..

طُرِق الباب: أتسمحينَ لي بالدخول ؟!

شام: نعم، تفضل ..

دخلَ وطن وجلس على الكرسي المقابلِ لشام، وقد رأى آثارَ بكاء تحتلُ وجهها: شامي ؟! أيمكنُ لهذا الوجهِ أن يبكي بسهولة ؟!

نظرت له شام قائلة: إن الذي يحدث أكبرُ من قدرتي على التحملِ يا وطن، فُقِدَ والدي، فلم يبقَ لي إلّا أمي وأخي في هذه الدنيا، كنتُ أعملُ من أجلهم ومن أجلِ سعادتهم، إلى أن ظهرتَ أنتَ في حياتي، كنتُ سعيدةً بك جدًا، ثمَّ فقدتُ الأمل ذاك اليوم، إلى أن جاء إبراهيم إلى هنا وأخبرني بأنكَ على قيدِ الحياة، شعرتُ حينها أنني ولدتُ من جديد، فشعرتُ بنسمات اللهفة والعشق تمرُّ على قلبي بلطفٍ تجعلهُ ينبض بطريقة لا توصف، وحينَ خرجتَ من السجن ظننتُ أنَّ الحزن قد انتهى لكنني كنتُ مخطئة..

وأخذَت تبكي بحرارةٍ تحرقُ ملامحها، فاحتضنها وطن، وأخذَ يداعبُ خصلاتِ شعرها ويمررُ أصابعهُ خلالها وكأنها ابنته، رفعَ وجهها بكلتا يديهِ وبقيَ ينظرُ في عينيها ..

كان لها وجه تسبح فيه الشامات باسترخاء، تستطيع من خلالهنّ أن تلمس السماء، فكانت كلُّ شامة عبارة عن كوكب..

قالَ لها: أتعلمينَ أنني الأكثر حظًّا، وحدي من ضمَّ الكواكب كلّها بكلتا يدي....

ثم عادَ للنظرِ في عينيها قائلًا: أتذكرين رسالتي لك ؟!

فهزّت برأسها والدموعُ تلمعُ في عينيها: نعم أذكرها ..

قال: شامي، حينَ كتبتُ لكِ بأنني رجلٌ لا أنسى قط وذاكرتي لا تخونني أبدًا، أتعلمينَ أنني نسيتُ كل آلامي حينَ قرأتُ رسالتكِ تلك بالرغمِ من الجحيم الذي يطوّقُ حياتي من كل جانب، وشعرتُ بريحِ الجنةِ حينَ رأيتكِ، وأنا الآن نسيتُ كل شيءٍ في حضورك و .....

قاطعتهُ شام بطريقةٍ لطيفة قائلةً: أحبك ...

فابتسمَ وطن ابتسامةَ الملهوفِ لشيءٍ يطوقُ لسماعهِ منذُ فترةٍ طويلة، وأخذَ شام لأحضانهِ من جديدٍ وكأنهُّ يريدُ أن يخبئها داخله، فجأةً رأى أن هناك ثُقبًا في الحائط، فقال: شامي ماذا يوجدُ وراءَ هذا الحائط، فقالت له: هناكَ سورٌ لكنهُ قصير، فإنَ مشيتَ قليلًا لليمين تجدُ الباب الخارجي للمشفى ..

وطن: ألا يوجدُ أي أداة هنا لنستطيعَ من خلالها كسر الحائط والخروج ؟!، فقالت لهُ شام: انتظر قليلًا سأحاول إيجاد أي شيء يمكن أن يفي بالغرض !!

في نفس الوقت كانَ هناك مجموعة من رجال الأمن يستعدون لإنقاذ من في المشفى، وحينَ استطاعَ الضابط المسؤول أن يكشفَ من هم وراء كل ما حدث، كانَ قد هُددَ بالقتل، لكنه لم يكترث بالرغمِ من أنهُ متزوج ولديهِ أطفال.

وحينَ ظنَّ أن كل من يتعامل معه يتحلّى بالإخلاص كان مخطئاً، فأحدهم كان ينقل جميع أخباره " يُدعى سمير"، تواجدَ في غرفةِ الضابط لنقل الأوامر للمعنيينَ بالتنفيذ، وعندما تمَّ توقيع أمر إتمام مهمةِ الإنقاذ قامَ سمير بطعن الضابط قاصدًا قتله، وأخذَ الورقة في

جيبه، ثمَّ خرجَ هارباً من الغرفة، شعروا عناصر الشرطة أن أمرهُ مُريب، فأوقفوه تحسُّبًا، ودخلَ أحد عناصر الشرطة للمكاتب للاطمئنان، وأثناء مروره وجدَ الضابط المسؤول على الأرض، فصرخَ بأعلى صوته طالبًا المساعدة وطلبَ الإسعاف لنقلِ الضابط للمشفى، ونزلَ مسرعًا يطلبُ من زملائهِ أن يأخذوا سمير للتوقيف لحينِ معرفةِ من قامَ بهذا العمل البشع، ونُقلَ الضابط للمشفى بأقصى سرعة .

لا يمكن وصف شعور الخيبة يا عروة في حين أن الذينَ كنا نثقُ بهم خانوا، وكانوا أقذر من أعدائنا، كم يبدو الأمر مثيرًا للسخرية حينَ تقنعهم أفكارهم بأنهم نجحوا بخداعنا حينَ نقضوا العهد، في ظلِّ أن لا أحدَ غيرهم مثيرًا للشفقة ...

كانت شام تشعرُ بالأمان بوجود وطن بجانبها إلّا أنها كانت خائفة من الوضعِ الراهن، عادت لوطن بعد قليل من الوقت بأداة تساعده على تكبير الثقب الذي رآهُ في الحائط ليتسنى لهم الخروج ممّا هم فيه، بدأ بضرب الحائط بقوة، وشام تنظرُ له وهو يضربُ بكل قوتهِ وبينَ كل ضربةٍ وأخرى يلتفتُ لشام ويبتسم.

سيطرَ التعب على الجميع، حاولت شام أن تساعدَ بالأشياء البسيطة كالماء الذي بقي في غرفةِ الممرضات بعد أن قُطع الماء عنهم والطعام لمدةِ أسبوعين.

وبعد عدة ضربات في الحائط بدأ الثقب يكبر، لكن التعب قد امتلك وطن فسقطَ متعبًا على الأرض، فركضت لهُ شام بقليلٍ من الماء، قائلة: وطن! اشرب قليلًا من الماء، بعدَ ذلك قامت بمساعدته للنوم في سريره؛ ليرتاح، وما إن احتلَّ سريره حتى طلبت شام الإذن منه لإكمال أعمالها، وأدارت ظهرها لتخرج من الغرفة، فشعرت بيدهِ تشدُّها نحوه ..

شام: ماذا بك يا وطن؟ أأنتَ بخير ؟!

وطن: شامي، أريدكِ أن تبقي هنا ..

فجلست بجانبهِ، وأخذت تمرر أصابعها بينَ خصلاتِ شعرهِ وهو يبتسم ويتأمل ملامحها، إلى أن ذهبَ في نومٍ عميق ...

عروة، النظرُ في ملامحِ من نحب يُشعِرنا بالأمان، فنذهبُ حينها في نومٍ عميقٍ لم يقم يزيارتنا منذُ فترةٍ طويلة

كم أتمنى أن أسمعك وأنت تصف شعورك حينَ كانت هناء تتكور في أحضانكَ وتنام بسلام ..!!

بعد وصول الضابط للمشفى، أدخلوه غرفة العناية الحثيثة بسبب خطورة وضعه الصحي، فقد كانت الطعنة قريبة من الرئتين، كانَ هناك أربعة عناصر من الشرطة يقفون بجانبِ غرفته للحراسة، وبدأ التحقيق مع سمير، واتضحَ أن الضابط " رقم 202 " يتعامل مع عدة جماعات تخريبية، في سبيلِ كسب المال، ونشرِ الفساد، اعترفَ سمير عن كل من لهُ علاقة " بالضابط رقم 202 " وقامَ بإخبار الشرطة على أماكنِ تواجدهم، وبعد تفتيشهِ وُجِدَ في جيبه الورقة التي تمَّ توقيعها من الضابط لتنفيذ أمرِ إنقاذ المحتجزين في المشفى ..

وبدأ الاستعداد لمداهمةِ الأماكن السرية للجماعات التخريبية، وفي نفسِ الوقت استعد فريقُ الإنقاذ واتجه للمشفى للقيامِ بعمله.

بعد مرورِ ساعةٍ بالضبط استيقظَ وطن، وجدَ شام تنامُ على طرف السرير من شدةِ التعب، فأخذ يمرر أصابعهُ بين خصلاتِ شعرها إلى أن استيقظت، فحين نظرت إليه كانَ وجهها شاحبًا،

فاحتضن وطن وجهها بكلتا يديه وقال: شامي أنتِ جميلة في كل الأوقات دون استثناء، وقبَّل جبينها ...

فردت شام بخجل: كُن بجانبي وسأكون بخير ...

وطن: شامي، أحبكِ كثيرًا ...

شام: وأنا أيضًا يا وطن ..

فالتقت العيون بعد ذلك، التقت بلهفة بغض النظر عن التعب الذي يسكن قلبيهما، بعد مرورِ دقيقتين سُمِعَ صوتٌ يُنادي...

وطن: ألا تسمعينَ يا شام ؟!

شام: لا، لا أسمع ...

أخذَ وطن بيدِ شام وخرجا إلى قاعةِ الاستقبال، بدأ الصوتُ يعلو أكثر كلَّما اقتربا من باب المشفى...

" نحنُ فريقُ الإنقاذ جئنا إلى هنا لإخراجكم بسلام إلى بيوتكم، فقط ابقوا بعيدين عن الباب لنستطيعَ الدخول دون أن يتأذى أحدٌ منكم " ..

فابتعدَ الجميع كما طُلبَ منهم، بدأت الابتساماتُ تخرجُ من عتمةِ الخوف لتظهرَ على الملامح ...

احتضنَ وطن شام لا إراديًا، وكأنهُ يطمئنها ..

قام فريقُ الإنقاذ بهدِّ أحدِ الجدران والدخولُ للمشفى، قاموا بنقلِ جميعِ المرضى لمشفى آخر ودفنُ من مات منهم...

حينَ اختفى الحائط، وبدأ الجميعُ بالخروج، نظرَ وطن لشام وأخذَ بيدها، وخرجا معًا، ثمَّ بحثَ وطن عن أي شخصٍ يمكنه أن يتصلَ من هاتفهِ بإبراهيم، فلم يجد أحد، وقفَ ومعه شام في الشارع، وبعد مرور دقيقتين توقف رجلٌ بسيارته وطلب منهما الصعود.

وطن: نحنُ نعتذرُ منك، لكن الظروفَ أجبرتنا على الوقوف هكذا، نحنُ كنا من ضمن الأشخاصِ الذين احتُجِزوا في المشفى.

فردَّ صاحبُ السيارة، يُدعى " عبد الرحمن": لا تعتذر ، الحمدلله على سلامتكما، ثمَّ سأل وطن: إلى أين تودُّ الذهاب ..؟

فاقترح وطن أن يوصِل شام لبيتها أولاً ومن ثمَّ يوصلهُ لبيته، فقابلهُ عبد الرحمن بابتسامة قائلًا : بإذن الله ..

عروة، لم يأخذُ الحب حقهُ في قلبيهما، بسبب ما مرَّ عليهما من ظروف قاهرة مؤلمة، وبالرغم من كل ذلك يتمسك كلٌّ منهما بالآخر وكأنهُ معجزته في هذهِ الدنيا ...

كم هو جميل الحب يا عروة، حينَ لا تنهيهِ ظروف، بل يكبر ويتأجج في القلوب أكثر وأكثر .

وصل عبد الرحمن لبيتِ شام،نزل وطن ليوصلها، فحينَ وصلا قبل أن تدقَّ شام الباب، وقفَ وطن مقابلًا لها قائلًا: انتهى كل شيء سيء يا حبيبتي، سأعطيكِ مهلة لمدة ثلاثة أيام فقط، وبعد ذلك سنتزوج، فلم أعد قادرًا على الانتظارِ أكثر، أخبري والدتكِ بالأمر، وأنا سأحضرُ أهلي بعدَ ثلاثة أيام بالضبط، ولا أريدُ أعذارًا أبدًا، أتفهمين؟

شام: لن يكونَ هناكَ أعذار، فأنا أريدك بكلِّ ما فيَّ يا وطن، فأنتَ لي كلُّ شيءٍ في هذهِ الدنيا .

وطن: حبيبتي، أنا هُنا معكِ، وسأبقى لآخرِ يوم من عُمري، وأمسكَ وجهها بكلتا يديه وقبَّلَ خدّيها، فتوزعت قبلاتهُ لكل شامة قُبلة، ونظرَ في عينيها قائلًا: أحبكِ شامي، أحبكِ..

شام: وأنا أحبكَ يا وطني ..

أمطرت السّماء وهما واقفانِ يصفانِ لبعضهما عشقًا لا مثيلَ له، فطلبَ وطن من شام أن تتصلَ به، بعد ذلك دقَّت شام باب بيتها وطلبت من وطن الذهاب لكي لا تراهُ والدتها، وأوصتهُ على نفسه ..

فتركها وعاد لسيارةِ عبد الرحمن ليوصلهُ لبيته..

فتحت أم شام الباب فوجدت شام أمامها متعبةً خائفة، وقعت شام بينَ يدي والدتها، فقامت والدتها بإسنادها وأخذها إلى سريرها قائلةً: ماذا بكِ يا ابنتي ؟ اتصلتُ بكِ كثيراً ولم تجيبي !!

أخبرت شام والدتها بكلِّ ما حدث، فتفاجأت والدتها مما سمعت، فكيف حدثَ كلُّ ذلك وهي لا تعلم ..؟!

طلبت شام من والدتها أن تستحم وتعود لفراشها للنوم..

بعد مرور ساعة بالضبط وصلَ وطن إلى بيته، فتح لهُ إسلام، وحين رآه صرخَ بأعلى صوته : أمي ! أبي ! عمر ! إنه وطن.

فركض الجميع بلهفة؛ ليسلموا عليه، كانَ الجميعُ نائماً في بيتِ أبي محمد منتظرين أخباراً عن وطن، فحين اطمئنوا عليه انتهى خوفهم تمامًا، تكورَّ وطن في أحضانِ أمه يشكو لها عن كلِّ ما حدث معه، ثمَّ قال: أمي ! أريدُ أن أتزوج.

نظرَ الجميعُ لوطن نظرة استغراب، قالت له أمه: يا بني كيف تريدُ أن تتزوج؟ ماذا بك؟ إنكَ مُتعب الآن، سنتكلمُ في هذا الأمرِ فيما بعد ..

وطن: لا يا أمي، بعدَ ثلاثة أيام ستذهبون معي جميعًا لخطبتها..

أم محمد: من هي ؟؟

وطن: شام يا أمي ، شام .

إسلام: الممرضةُ شام ؟

وطن: نعم هي، أحبها وأريدُها زوجة لي، فقد تعب الانتظارُ من الانتظار، أريدها يا أمي ، أرجوكم ..

أبو محمد: سنذهبُ جميعاً لخطبتها يا بني، لكن استرِح الآن ..

وطلب أبو محمد من بناتهِ أن يحضرنَّ الطعامَ لوطن .

أخذت أم شام ابنتها للسرير بعد أن استحمت، وقامت بإطعامها، وسرَّحت لها شعرها، وبعدَ ذلك قامت باحتضانها؛ لتنام ..

شعرت شام أنها عادت طفلة صغيرة بين يدي أمها.

كانت ليلة لا مثيلَ لها يا عروة، عاد كلٌّ منهما لأحضانِ والدته، مكملانِ سويًا الطريقَ، رغمَ كلِّ ما حدث ..

في صباحِ اليومِ التالي، استيقظَ وطن مبكرًا، طلب من إسلام أن يأخذهُ لمحمد، فحاول إسلام معرفة السبب فلم يخبره وطن بأي شيء، فأخذهُ إسلام وخرجا سويًا إلى مكانِ عملِ محمد، لكن حينَ وصلا اكتشفا أنه في إجازةٍ منذُ أسبوعينِ وأكثر ..

فطلبَ وطن من إسلام أن يأخذهُ لبيتِ محمد، حينَ وصلا إلى بيته، دقَّ وطن الباب، بعد ثوانٍ معدودة فُتحَ الباب.

وطن: مرحبًا .

وقفَ محمد صامتًا مصدومًا من مجيء وطن، تحديدًا بعد كلِّ ما حدث.

وطن: ألن تسمح لنا بالدخول؟

محمد: تفضلا .

فدخل كلٌّ من إسلام ووطن ..

خيَّم الصمت عليهم لمدة عشر دقائق متواصلة .

وطن: كيف حالكَ يا محمد ؟

نظر محمد بخجلٍ لوطن: الحمدلله، أنتَ كيف حالك؟

وطن: جئتكَ اليوم للحديثِ معك .

محمد: تفضل .

وطن: نحنُ إخوة يا محمد بالرغمِ من كلِّ ما حدثَ بيننا، لا مجالَ للأذيةِ والبغضاءِ بيننا، جئتكَ اليوم لنعودَ سويًا لبيت والدنا، لنكون بالقرب من بعضنا، فقد اشتقنا لك يا محمد..

ابتسمَ إسلام قائلًا: قُم يا محمد، قُم لنذهبَ سويًا إلى البيتِ الذي تربينا فيه، وشهدنا فيهِ أجملَ أيامِ حياتنا ..

بعد ثوانٍ معدودة قام محمد واحتضنَ وطن، وأخذ يعتذر منه.

فقال له وطن: ولا مجالَ للاعتذارِ بيننا أيضًا يا محمد .

كانَ محمد في إجازة لمدةِ أسبوعين وأكثر؛ بسبب أنَّ كل من كانَ يتعامل معهم تم إلقاءِ القبضِ عليهم، ومن رحمةِ الله بهِ أنهُ تمَّ السكوتُ عنه مقابلَ دفعِ مبالغَ من المال، فعادَ لبيتهِ آخذًا عهدًا على نفسهِ أن لا يخوضَ في طريقِ سكبِ الدماء والفساد أبدًا، وبعد جلوسه في البيت شعر بأنه مَدينٌ لأهلهِ باعتذاراتٍ كثيرة، بسبب كل ما فعله، وبدأ بالاعتذار من وطن، عادَ وطن وإسلام للبيتِ برفقةِ محمد وزوجتهِ وأولاده، حينَ وصلوا، نظر أبو محمد لوطن

قائلاً: ما الذي حدث ؟، فقالَ لهُ وطن: لا شيء يا أبي، فقط جددنا عهد الأُخوَّة بيننا، ومن ثمَّ قام محمد بالاعتذار من الجميع..

قاطعهم وطن حينَ قال: حضِّروا أنفسكم؛ لنذهبَ لخطبة الفتاة التي أحبها ..

محمد: سنذهب جميعنا معك، فنظرَ إليهِ وطن وابتسمَ له، وقامَ باحتضانه ..

في نفس الوقت كانت شام تجلسُ مع والدتها وعلي، نظرت لوالدتها قائلةً: أمي، أودُّ الحديث معكِ في موضوع .

أم شام: تحدثي يا ابنتي

شام: هناك إنسان يحبني ويريد أن يتقدم لخطبتي .

لم تسألها أمها عن أيِّ تفصيل، فقط قالت لها: إن كان يحبك يا ابنتي فأنا موافقة .

شام: إنهُ يحبني كثيرًا يا أمي، فما كان من والدتها إلّا أن احتضنتها مباركةً هذه الخطوة ..

بعد مرور ساعة اتصلَ وطن بشام، وأخبرها أن تُحضّرَ نفسها لتكون أميرته.

بعد مرور أسبوع فقط، أصبحت شام زوجة وطن، كانت ليلة مليئة بنسمات الحب، كان رجلاً شامخاً، لا يلفت انتباهه شيء إلا الأشياء المختلفة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ألقى السلام على الجميع وجلس، وحين بدأت عيونه تستكشف المكان رآها ترتدي فستاناً بنفسجياً كالأميرات، وشعرها كسواد الليل ، أَسَرته، جعلته يلتفت لها مُرغماً وكأنهُ أول مرة يراها، أصبح ينظر إليها نظرات خاطفة، يتبعها بعيونه أينما تذهب، ويختتم كل نظرة لها بابتسامة لا تشبه غيرها من الابتسامات وكأنه يرى أمامه امرأة من الحور العين، لم تكن تنتبه له منذ البداية، إلى أن التفتتْ، فجأة تلاقت العيون، فضاع كلٌّ منهما في تفاصيل الآخر لدقيقة وأكثر، عادت لتكمل كلامها مع الحضور، وبعد عناء دام لربعِ ساعة في مشاورات بينه وبين نفسه هل يقترب ؟! وهي تراه وتبتسم ابتسامات خفيّة، وعندما تلاقت عيونهما مرةً أخرى تجرأ واقترب منها للحديث معها، ابتسمت ابتسامة ليس كمثلها ابتسامة وكأنها

كانت تنتظر أن يقترب منها، باغت ابتسامتها قائلاً : هل تقبلين بالرقص مع رجل لا يملك سِوى كلماته وعيناكِ ؟! فكانت إجابتها له كصاعقة ضربت جسده بأكمله، صاعقة مليئة بالحب والأنوثة حين قالت وهي ترفع حاجبها مع ابتسامة خبيثة: تقبل إن كان رجلاً أولاً..

فما كان منه إلا أن مدَّ لها يده وعرض عليها رقصة، لقد سرقت قلبه بحروفها وإن كانت قليلة، تقدما بخطوات ثابتة، وهو يحتضن يدها في كفِّ يده، ولولا رحمة الله لسقط مغشياً على وجهه، واقترب منها كثيراً و همس في أذنها: أحبكِ، أحاط بها بين كتفيه وضمها إلى أضلعه، شدَّ على معصمها كما لو أنه يمنعها من الذهاب، تبادلا نظرات مليئة بالأحاديث التي لا يعرفها سواهما، انتهت الموسيقى ولم يَكُفّا عن الرقص، من شدة انسجامهما رقصا ليوم، يومين أو ثلاثة دون أي تعبٍ يُذكر، فقد كان سارحاً في تفاصيلها، وقبضته تزداد قوة وكأنه خائفٌ من غيابها عن أنظاره لـ لحظات، وأسند رأسه على كتفها، بدأ التعب بالاختفاء عن ملامحه، وتُزهر في أضلعه الورود، وكأنه تكّور في أحضانها كطفل صغير، وهي تنظر

إليه بكل حب، أحبَّت تفاصيله أكثر مما ينبغي، حفظت عدد الشامات التي تسكن وجهه، كانت دقيقة الملاحظة وكأنها تريد حفظ أكبر كمّ من تفاصيله حتى تلك التي لا يلاحظها أحد، ولون عينيهِ الذي أُخذ من القهوة، فسعادتها أصبحت تشع في المكان، وسطعت الشمس من عينيها، فالرقص مع رجل مثله يبدو كالحلم، ظنَّت فقط أنه يراقصها على أوتار الآلات، ولكنه راقصها أيضاً على ألحان قلبه العاشق لها.

انتهت قصة وطن وشام، ولأول مرة في حياتي أُنهي الأمور كما يُمليهِ عليهِ قلبي، كما يُحبُّ ويرضى، لكنَّ الحرب لا زالت قائمة، لم ترفع ستائرها بعد لتدخل نسمات السَّلام إلى أرض سوريا، والقلوب المنكوبة لم تهدأ، وإن تم الحكم على مريضي الأنفس والقلوب، خائنين الوطن والهوية، من يُرجِع لكلِّ ذي حق حقه في الدنيا ؟ وإن أُعيدت الحقوقُ لأصحابها، ما الطريقة الواجبُ اتباعها لعدمِ ظهورِ مثل هؤلاءِ مرة أخرى؟ فهناكَ الكثيرُ منهم، لكن الجميل في الأمر أنَّ كل واحد منهم لا يمثل إلّا نفسه، فلا زالَ هناكَ شرفاء يسهرون على راحة وأمان وطنهم ..

عروة، أنتَ تعرف أنَّ الأقدارَ تختارنا بإذنٍ من خالقها، لكننا في خصامٍ دائمٍ معها، فإن حلَّ الخصام بيننا كلانا يختارُ الحرب؛ فالمواجهةُ أمرٌ مفروغٌ منه، وفي نهايةِ الأمر لا بدَّ من أن ترجح الكفَّة لأحدنا، ونحنُ نمضي بينّ كرٍ وفر متكلين على الله، وأعيننا تراقبُ أحلامنا من بعيد تنتظر لحظة اللقاء والمعانقة، أحلامنا التي رسمناها مذ كُنّا صغارًا في أذهاننا وعلى الورق والجدران، وتحدثنا بها لأمهاتنا وأصدقائنا وألعابنا، لكن حين كبرنا تربَّت في أذهاننا فكرة أن الأحلام وحدها من ترغبُ بعناقنا، وكذلكَ الموت، وأنَّ العشق بعيدًا كل البعد عنّا، وأنَّ نهايته دائمًا مأساوية، لكن حينَ خاضَ بعضنا ما يسمى الحُب، اكتشفَ أنَّ الحُب وحده من تجتمع فيه الأحلام، الحزن والفرح، اللهفة والانطفاء، والموت أيضًا، وتُلغى في قاموسهِ كل المستحيلات، حينَ نلتقي من يشتاقُ لنا في جميع أحوالنا، ويَطوف حَوْلنا، من يختارنا لأجلنا، من يضيئنا في عتمتنا..

فكيفَ إن أضاءَ الحب قلبينِ فِي ظُلُمات الحُروب يا عروة، حينَ تبدو كُلُّ الألوان قاتِمة ؟؟؟

حينَ تتوشَّحُ الدنيا بالظلام، فلا يُرى فيها إلّا نور الانفجارات، ولا يُسمعُ إلّا صوتها، ولهيبُ نيرانِها يحرقُ كل شيء.

فجأة، تخترقُ رصاصة الحب من بين رصاصات الحرب قلبان فتُحييهما، وتتجه لقلوب أخرى أيضًا، فيصبح الميدان مليئاً بالعيون التي تتبادل النظرات والأحضان علنًا فلا حَرَج، هذا الميدان تحديدًا يشغفُ الجميع حُبًّا، حينَ تراودهم الرصاصة عن أنفسهم، فيقول كلٌّ منهم للآخر: هيتَ لك، فيقابلهُ الآخر باستسلام لذيذ، عندها يتسلل الشعور في الأوردة وبين القلوب، يدعو كلٌّ منهم حميمه لظلِّه، فإن ضاع أحدنا فِي ظُلُمات الحُروب قَدْ لا يجدْ مَلجَأً، ولكنَّه حَتْمًا سَيستظلُّ بقلب يمنحه من ثمار الحبِّ مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمعت ..

عروة، ها قد بُحتُ لكَ بالقليل ممّا في أعماقي، ورويتُ لكَ القصة التي تسكنني، لكنني لم أتخلص بعد من كل شيءٍ يختبئ داخلي، فهناك أمور لا تقال، والخيبات التي انتهت في حياتي لم يُشفى أثرها، ولا أعلم ما الذي ينتظرني من خيبات ومواقف جديدة، وربما ينتظرني حُبٌّ كنتُ أتمناهُ يومًا بنفسِ التفاصيلِ التي أخبرتكَ إياها، أن يكونَ رجلًا بالفعل، وأن يتقنَ الحب بتفاصيله، أن أكون هو، ويكون أنا ..

فكم أتمنى أن أُجرب شعور أنني اخترتُ بطريقة صحيحة ولو لمرة واحدة في العمر، فلعلَّها تحدثُ يا عروة، لعلَّها تحدث؛ لأبدأ من جديد بعد مروري في طريقٍ مليءٍ بالخيبات، بعد موت زهور مدينتي، وجفاف حدائق الكلامِ في صدري، ومرور أوقات لا أعلم للآن كيف مرَّت .

كلُّ ما أخبرتكَ بهِ يا عروة سيبقى مكتوباً هُنا ولن أبوح بهِ لشخصٍ آخر، ستبقى هذهِ الأوراق ناقصة الجزء الآخر، وهو لمس الشخص المقصود لها، لا أعلمُ المصير الذي ستؤولُ إليهِ هذهِ الأوراق، ومن سيقرأها، لكن إنْ مرَّت الأيام ووصلت للشخصِ الذي سيرى نفسه بينَ سطورها، أتمنى أن يراني كما أنا، ليس كما يفترض في نفسه، وأن يترك ظنونه جانبًا، ويأخذ حروفي على محملِ الجد، والأهم من هذا كلّه أن يشعر بي، ولو كانت حروفي هذه لا تعنيه، أو كانَ مُجرداً من الشعور...

لعلَّ

انتهت ...

لعلَّ